

ماري انتوانيت وولدها

رواية تاريخية

تأليف

السيدة ل . مولباخ

مؤلفة رواية « محمد علي » التي نشرها الهلال

تعريب

سليم سركيس

مطبعة الهلال



مقدمة المعرب

بتاريخه قد حصل الاتفاق والتراضي بين الفريق الاول حضرات قراء مجلة الهلال ـ و ينوب عنهم موقتاً صاحب الهلال ـ والفريق الثاني سليم سركيس على ما يأتي :

اولا ـ يعرب الفريق الثاني رواية « **ماري انتوانيت وولدها** » و ينشرها تباعاً في اجزاء مجلة الهلال لهذه السنة

ثانياً ـ يتعهد الفريق الثاني للفريق الاول أن تكون هذه الرواية جامعة بين التاريخ بدون ملل والفكاهة والادب والسياسة وأن تكثر فيها الوقائع المدهشة

ثالثاً ـ يتعهد الفريق الاول أن يقبل على مطالعة هذه الرواية بعناية وأن يشركوا في مطالعتها زوجاتهم وكرائمهم واخواتهم « وجميع من حواه بيتهم العامر » لانها تليق بالسيدات وتلذ لهن

رابعاً ـ يتعهد الفريق الاول ان يؤجل حكمه على الرواية وعلى حسن اختيار معربها الى ان تنتهي بنهاية هـذه السنة من مجلة الهلال . فاما أن يقول للفريق الثاني « زدنا بارك الله فيك » او ان يقول ما يوافق لفظه ولا توافق كتابته ونشره

مصر في سبتمبر سنة ١٩١٦

عن الفريق الاول
صاحب الهلال

عن الفريق الثاني
سليم سركيس



الكتاب الاول

الفصل الاول

ملكة سعيدة

تبدأ حكايتنا التاريخية يوم ١٣ اوغسطس سنة ١٧٨٥ يوم اجابت ماري انتوانيت ملكة فرنسا التماس شعبها وزايلت فرسايل وتريانون يوماً واحداً وذهبت الى باريس ليراها الشعب ويرى طفلها الحديث ولتقبل في كاتدرائية نوتردام بركة الاكليروس ودعاء الشعب الباريسي

واحتفل القوم باستقبالها احتفالا باهراً ودخلت العاصمة في عربة مكشوفة والناس يهتفون لها ويجرون في معيتها الى ان بلغت نوتردام حيث كان ينتظرها كبار رجال الاكليروس وفي مقدمتهم الكردينال البرنس لويس دي روهان

ورافق جلالتها في العربة دوقة بولينياك مربية الاولاد وبجانبها المرضع النورمانية بزيها الوطني تحمل الطفل لويس شارل دوق نورماندي وجلست بجانب جلالتها كريمتها تيريز ونجلها لويس ولي عهد الملك لويس السادس عشر

ولم يرافق الملك جلالتها في هذه الرحلة الى باريس وانما أرادت ماري انتوانيت من رحلتها هذه ان يرى الشعب الباريسي انها نقهت من انزعاجها وان اولاد الملك بل العرش الفرنساوي على

أحسن ما يكون من العافية والهناء

وكان الملك لما عزمت على السفر قد ودعها قائلا :

ـ اذهبي يا عزيزتي انتوانيت الى باريس واملئي قلوب شعبي بهجة وحبوراً وليروا أولادنا واقبلي منهم الشكر على هذه السعادة التي توفرت لي ولشعبي بواسطتك ولا أرافقك لانني اريد أن تتمتعي وحدك بعطف الشعب وما يظهرونه لك من الولاء فلا أشاطرك هذا الهناء ولكنني يعظم ابتهاجي اذا تمتعت وحدك بما يعدونه لك من ابهة الاستقبال

وعملا بمشورة الملك ذهبت وحدها وسرها ما لقيته من الاكرام والاحترام ولما خرجت من الكاتدرائية كانت الساحة غاصة بالجماهير والشوارع في كل مكان حافلة بالشعب المحتفل . فقد اجتمعت باريس في تلك النقطة لترى ماري انتوانيت ولم تكن ساعتئذ الملكة العظيمة بل كانت المرأة الحسناء والام السعيدة لا تلتمس حماية افضل من حماية ولدها ولا تريد وصيفة شرف أفضل من كريمتها فظهرت في موكبها العائلي بابهة ملكة فرنسا وعظمة الام الحنون

وكان الجمع رجالا ونساء يملأون الفضاء دعاء :

« فلتحي ماري انتوانيت »

« فلتحي الملكة »

« فلتحي المرأة الحسناء التي انجبت لفرنسا أولادها »

وملأ السرور قلب الملكة وأسكرها مشهد الابتهاج والهتاف وراق لها ابتسام الجمهور وضحكه وهتافه فابرقت اسرتها والتهب

فؤادها ابتهاجا ولمع بريق الهناء في عينيها ثم استفزها ما رأت فوقفت في العربة وتناولت طفلها من المرضع ورفعته بين يديها ليرى الشعب دليل سعادتها وافتخارها بالغلام الذي انجبته لفرنسا فلما فعلت ذلك انقلبت قبعتها الجميلة عن رأسها وسقط الوشاح العريض عن ذراعيها فرآها الجمهور وابتهج بما رأى وتعاظم سرور القوم فاندفعوا يهتفون من كل جانب :

« ما أجملها »

« وما أجمل ذراعيها »

« وما اجمل عنقها »

فلما سمعت ماري انتوانيت هذا الهتاف صبغ الحياء وجنتيها وانتبهت الى مقامها الملكي

فتحولت من امرأة مسرورة مبتهجة بما حولها الى ملكة جليلة فعادت الى مجلسها وسلمت الطفل الى مرضعه وانزوت في العربة كما ينزوي الطير الخائف ثم سترت ذراعيها بالوشاح واصلحت قبعتها وقالت للمرضع : ـ قولي للسائق ان يعجل بالمسير

و بينما المرضع تبلغ السائق أمر سيدتها تحولت الملكة الى ابنتها وقالت باسمة : ـ ألا تحسبين هذا المشهد جميلا اذ يبدي الشعب سروره بمشاهدتنا

أما الاميرة تيريز ولها من العمر يومئذ سبع سنوات فانها هزت رأسها بعجرفة وقالت :

ـ انني ياوالدتي لا استحسن هؤلاء الناس وما هم فيه من القذارة

فاسرعت الملكة الى اسكات كريمتها همسا لانها خافت ان يسمع

الرجال ملاحظتها الساذجة وهم قد أحاطوا بالعربة حتى لمسوها تماما

وقد وقع فعلا ما تخوفت الملكة من وقوعه فقد سمع ملاحظة الاميرة رجل كان قد اقترب كثيراً حتى وضع يده على باب العربة فرماها بنظرات الاستياء وقال :

— يلوح لنا ان الاميرة لا تحبنا لقذارتنا وقباحة أشكالنا . على اننا نستطيع ان نكون على ما تريد من الجمال والنظافة لو كان في وسعنا ان نلبس ملابسها الثمينة وان نركب العربات الفخمة ولكن قضي علينا ان نعمل الاعمال الشاقة وان نقاسي العناء في سبيل دفع الضرائب . ولو لم نفعل كل هذا ما استطاع الملك وعائلته ان يطوفوا العاصمة بمثل هذه الابهة وانما نحن على ما ترى الاميرة من القذارة لاننا نعمل لاجل الملك

فقالت الملكة بلطف : — ارجو ان تعذر ابنتي فانما هي طفلة لا تدري ما تقول على انها ستتعلم من والديها ان تحب الشعب العامل النشيط وتشكر الله من اجل محبته لنا ايها السيد

فاجاب الرجل بخشونة :

— انا لست « سيدا » وانما انا سيمون الاسكاف لا غير

فوضعت الملكة ليرا فرنساوية في يد ابنتها وهمست في اذنها قائلة « اعطيها للرجل » ثم قالت له :

— اذاً ارجو ان تقبل من ابنتي هذا التذكار في شكل صورة والدها وان تنفقه في الشرب على صحتنا

فصدعت الاميرة بامر والدتها ووضعت الدينار اللامع في اليد الضخمة الخشنة التي مدها الرجل اليها . على انها لما ارادت ان ترد

يدها اللطيفة الصغيرة كان سيمون قد قبض عليها وقال ضاحكا :

— يا لها من يد صغيرة . ترى ماذا يحل بهذه الاصابع الصغيرة لو اضطرت الى العمل

فصاحت الاميرة مضطربة :

— مري يا أماه هذا الرجل ان يترك يدي فانه يؤلمني

فضحك الاسكاف ضحكا عالياً ولكنه ترك يد الاميرة وقال هازئاً :

— ان الاميرة تتألم لمجرد لمس يد العامل وكان الأولى والأوفق ان لا ترى العمال ولا تخالطهم وان لا توجد بيننا على الاطلاق

فصاحت الملكة بالسائق بصوت عال وبلهجة الآمر :

— اسرع كثيراً في سيرك

وعملاً بأمر جلالها ساق الرجل جياد العربة وألهبها ضرباً فجرت تنهب الارض نهباً فتفرقت الجماهير التي كانت قد أحاطت بالعربة تصغي لحديث الملكة وسيمون

واستعادت الملكة سكينتها وابتسامتها وكانت تحيي الهاتفين ومع ان الجماهير احاطت بعربة جلالتها وهتفت لها وأعجبت بجمالها فانها لازمت السكينة والوقار ولم تعد الى تأثرها الاول واندفاعها السابق

وبينما عربة الملكة تغيب بين الجماهير الكثيرة وقف سيمون الاسكاف يواصلها بنظره ضاحكا ثم شعر بيد على ذراعه وقائل يقول بلهجة الاستهزاء :

— لعلك عشقت هذه المرأة النمساوية يا سيمون ؟

فتحول الى السائل واذا به يرى رجلا صغير الجسم مشوه القامة محدوب الظهر كبير الرأس قصير العنق ضيق الكتفين . وبلغ من دهشة سيمون لمنظر سائله انه ضحك مقهقهاً . فقال الغريب وقد ضحك ايضاً بملء شدقيه الواسعين :

— انت لا تراني جميلا بل أنا منكر الوجه قبيح الخلقة

— انت غريب الشكل يا هذا ولولا انني سمعتك تخاطبني باللغة الفرنساوية ورأيتك منتصباً على قدميك مثل سائر الناس لحسبتك ضفدعاً كالذي قرات حكايته بالامس

— هو ما تقول ولكنني تنكرت في زي الناس لأرى هذه المرأة النمساوية واولادها . واني اسالك ثانية هل أحببتها ؟

— لا . انني لم احبها . وعدم حبها ليس خطية في نظر الله . وان كان ذنباً في نظر الناس عوقب مرتكبه مراراً بالسجن المخيف . على انني احب الحرية ولذلك لا أجاهر برأيي لرجل غريب

— اذا كنت تحب الحرية هات يدك اصافحها وأشكرك على هذا البيان يا أخي

— انا لا اعرفك

— ولكنك تحب الحرية وهي واسطة الاخاء بيننا . فجميع عشاق الحرية اخوان لانهم اولاد ام واحدة لا تعرف فرقا بين اولادها بل هي تحبهم جميعاً سواء عندها الامير فيهم والاجير . ولما كانت الحرية أمنا فنحن اخوة

— هذا الكلام جليل ولكن عيبه الوحيد انه غير صحيح . لانه اذا كنا كما تزعم إخوة فما بال الملك يطوف في عربة مذهبة

بينما انا الاسكاف اجلس على مقعدي الخشبي والعرق يتصبب من جسمي.

— ذلك لان الملك ليس من ابناء الحرية وهو يريد ان يستعبد رعيته وعهد سلطته غير طويل فانه وانصاره يبحثون عن حتفهم بايديهم والملكة اصدقاء ينسجون كفنها بايديهم وفي مقدمتهم دوق دي كويني وهو احد عشاق الملكة

— قال سيمون . هذا غريب وهل للملكة عشاق ؟

— نعم . ولا يخفى عليك ان هذه النمساوية لما جاءت الى فرنسا زوجة لوَلي العهد يومئذ قال لها دوق دي بيسنفال « ان المائة الف باريسي الذين جاءوا لاستقبالك يا سيدتي هم جميعاً عشاقك » وهي الآن تريد ان يحبها كل باريسي وعن قريب يأتي دورك انت ايضاً وتستطيع ان تقبل وتضم يد هذه النمساوية الحسناء

— اذاً فاعلم من الآن انني اضم يدها ضماً شديداً لا يزول اثره . ولكنك لم تذكر الا اسم عاشق واحد لها

— اما عاشقها الثاني فهو لورد ارهيمار الاحمق الجميل على ان الملكة تحب الجمال وهي موصوفة بالميل الى اللهو واللعب والضحك الدائم واشتهرت حفلاتها الليلية في فرسايل فقد امرت ان لا تقفل الابواب الحديدية في الحديقة وأباحت للاهالي الدخول والدنو من الملكة والاصغاء للموسيقى . سل ضابط الفرسان الجميل عن الليلة التي جلست فيها على مقعد من مقاعد الحديقة بين امراتين جميلتين في ملابسهما البيضاء فقضوا زمنا في الحديث

واللعب انه ليخبرك عن مقدرة ماري انتوانيت في انصرافها الى الضحك واللهو[١]

فقال سيمون . بودي لو عرفت هذا الضابط لانني اريد ان اسمع كل شيء رديء عن هذه المرأة النمساوية لانني اكرهها وجميع بلاطها

وتمادى محدث سيمون في اغرائه وتحريضه على الملكة ووعده بيوم يكون العقاب عليها شديداً الى ان قال :

— واعلم ان لنا شركاء في هذه المقاصد فاذا شئت ان تكون واحداً منا احضر هذا المساء اليّ ورافقني الى محل اجتماعنا فاقدمك الى انصارنا

— واين تقيم يا سيدي وما اسمك ؟

— اقيم في اصطبل الكونت دارتواز واسمي جان بول مارات[٢]

— انت تقيم في اصطبل ؟ لعمري لم يخطر لي من منظرك انك عربجي او سائس ومن المشاهد المضحكة ان اراك على صهوة جواد

— صدقت يا اخي لا شأن لي مع الخيل ولكن مع الرجال الذين يجتمعون في الاصطبل . انا طبيب بيطري لخيول الكونت دارتواز فاذا وافيتني هذا المساء اجمعك بكثيرين من الذين شغفتهم . والآن يجب ان انصرف الى اخواني . واعلم ان المرأة التي تفتح لك الباب ستقول لك انني غائب فاذكر لها الكلمات الآتية

(١) الحادثة واقعية كما ورد في مذكرات مدام كامبان مجلد اول

(٢) مارات هذا احد كبار زعماء الثورة الفرنساوية فيما بعد

« حرية . مساواة . اخاء » تبيح لك الدخول واستودعك الله

وما ابتعد قليلا حتى ادركه سيمون واستوقفه فقال :

— لقد فاتك ان تذكر لي اسم العاشق الثالث من عشاق المرأة النمساوية لانني اريد ان تكون لدي معلومات كثيرة متى عدت الى النادي الذي اجتمع فيه مع رفاقي فاروي لهم شيئا كثيراً عن الملكة واعمالها

فضحك مارات وقال : انا استحسن فكرة وجود ناد تتبادلون فيه الاحاديث وتروون فيه الروايات المختلفة عما يجري في فرسايل وسان كلو

— وماذا يجري في سان كلو فانما هو قصر مهجور

— أما الآن فليس مهجوراً لأن الملك لويس اعطاه لزوجته لتجعل النساء فيه أكثر عدداً منهن في التريانون حيث يستهان بالاداب والفضائل . نعم ان قصر سان كلو قصر ملوك فرنسا الفخم اصبح الآن في حوزة هذه النمساوية الحسناء و بلغ منها انها وضعت كتابة عند مدخل الحديقة تعين الشروط التي بموجبها يجوز للجمهور الدخول الى حديقة القصر

— هذا أمر غريب ففي كل حديقة مثل هذه الكتابة تنبيهاً للناس

— صدقت ولكنها أوامر صادرة من الملك نفسه وأما في سان كلو فالامر صادر من الملكة . فترى هناك بحروف واضحة الكتابة الآتية :

« باسم الملكة » (١) فما كفانا تحكم الملك بنا حتى جاءنا حاكم آخر في شخص الملكة ولدينا الآن سلطة بوليس خاضعة للملكة وحدها فكأنها دولة مستقلة ضمن دولة . ففي التريانون تجري الاوامر باسم الملكة وهي تنوي تعميم هذه السلطة في المملكة باسرها

— يا لها من خيانة

— وزد على ما تقدم ان الاعوان في سان كلو يلبسون الملابس الرسمية الخاصة بحرس الملكة نفسها فاذا سرت في حدائق القصر لا تحسب نفسك في فرنسا بل كانك في بلاد النمسا ومع ذلك فالامة الشريفة الفرنساوية لا تهتم

— لانها لا تعرف شيئا من كل هذا

— اذاً بين للامة هذه الحقائق

— سأفعل . ولكنك حتى الآن لم تذكر اسم ثالث عشاقها

— هو المسيو بيسينفال مفتش عموم الحرس السويسري وقائد عموم الجيش وحامل وسام لويس . فانه من مزايا عاشق الملكة انه ينال مكانة عليا . اما في عهد لويس الخامس عشر فقد كان بيسينفال كولونيلا في الحرس . اما الآن فقد رفعته الملكة الى منصبه السامي

— لقد فهمت شيئا كثيراً ولكن ارجو منك يا دكتور مارات ان تزيدني بيانا هذا المساء

وانصرف سيمون فلبث مارات يتأمل ويسر بنجاح فتنته

---

(١) De Par la reine وهذه العبارة كانت يومئذ على افواه الجمهور الفرنساوي وقد نقموا على الملكة استئثارها بالامر

الفصل الثاني

مدام عادلايدة

عادت الملكة ماري انتوانيت من باريس الى فرسايل وقد لزمت الصمت في طريقها فلم تفلح دوقة بوليناك في حملها على الحديث او الضحك . فلما وصلت العربة الى ساحة قصر فرسايل ضربت طبول الحرس وأخذ الجنود سلامها فانتبهت من ذهولها ووقع بصرها على طفلها بايدي المرضع فتناولته وضمته الى صدرها وقالت :

— انك دخلت اول مرة الى باريس يا ولدي الحبيب . وسمعت هتاف الشعب فارجو ان يكون هذا التكريم نصيبك في جميع حياتك وان لا يطرق سمعك مثل كلمات ذلك الرجل المخيف القذر

ثم خرجت من العربة كالغزال الشارد والطفل على ذراعيها وحيت الاعوان بابتسامة واسرعت والدوقة تجري وراءها مع سيدات الشرف فدخلت حجرتها وتولت المربيات امر ولي العهد والاميرة

وجرت عادة الملكة متى عادت من سفر ان تصرف سيدات الشرف . وأما هذا اليوم فانها ذهبت ولم تصرفهن فلبثن في الغرفة الكبرى فقالت واحدة منهن للاعوان :

— ماذا نفعل الآن ؟

فقالت ماركيزة مايلي :— يجب ان ننتظر. فربما ذكرتنا جلالتها وامرت بانصرافنا

فقالت البرنسس دي شيماي : — واذا لم تصرفنا بقينا كل يومنا هنا بينما هي تلهو وتلعب في التريانون

فقال البرنس دي كاستين : — نعم يوجد عيد عام في التريانون يوم ولا اسهل من ان تنسانا الملكة

واذ ذاك دنت عربة من القصر فقالت ماركيزة مايلي :

— هونوا عليكم فقد جاءنا الفرج من طريق هذه العربة فقد تقرر أمس في مجلس سري في منزل الكونت دي بروفانس ان تحضر مدام عادلايدة للمرة الاخيرة وتحاول ارجاع الملكة الى صوابها وتفهمها ما يليق بملكة فرنسا وما لا يليق بها وها هي قد اقبلت

ووصلت العربة تقل البرنسس عادلايدة كريمة لويس الخامس عشر وعمة لويس السادس عشر وهي متقدمة في السن . فتركت العربة بين احتفال الاعوان وصعدت على السلم متثاقلة يتقدمها التشريفاتي فلما وصل الى باب المقصورة الاولى المؤدية الى مقاصير الملكة قرع الباب بعصاه ونادى :

— مدام عادلايدة

فاعاد الحاجب هذا الاسم وفتح باب المقصورة الثانية وتناقلها الحجاب الى ان وصلت الى مقصورة الملكة

اما ماري انتوانيت فانها اظهرت كدرها قليلا لان هذه الزيارة اعترضت محادثتها الودادية مع صديقتها دوقة بوليناك فانطرحت لى صدر الدوقة وقبلتها مراراً وقالت :

— اودعك يا جوليا العزيزة . فقد جاءت مدام عادلايدة وجاء الكدر ولكن تأهبي ايتها العزيزة فحالما تنصرف مدام عادلايدة نركب الى تريانون سوية . ستبقى الملكة هنا نصف ساعة ثم تستعيض ما فقدته بمرافقة العزيزة جوليا الى التريانون حيث تقضي بقية النهار في سرور وابتهاج مع زوجها واصدقائها

وحالما انصرفت جوليا دخلت مدام عادلايدة بين وصيفتين وقفتا على جانبي الباب واعلنتا اسمها دفعة واحدة ومن وراء الاميرة وصيفاتها ورئيس تشريفاتها وحجابها . ورأت مدام عادلايدة ان الملكة لبثت في منتصف المقصورة فلم تتقدم اليها لاستقبالها فاستاءت ولم تجلس بل قالت :

— ربما كان مجيئي الى جلالتك في غير الوقت الموافق ولعل الملكة كانت تنوى الذهاب الى تريانون حيث بلغني ان الملك تقدمها الى هناك

فقالت الملكة باسمة : — وهل بلغ سموك هذا ؟ ان مدام عادلايدة حادة السمع اذ تبلغها مثل هذه الامور الطفيفة بينما انا على شبابي لم اسمع شيئاً عن قرب مجيء سموك لذلك تريانني في دهشة وسرور زاد بزورني عمتي الكريمة زيارة غير منتظرة

— هل تسمحين لي جلالتك بمقابلة

— بكل سرور وارتياح ولسموك الخيار في أن تكون المقابلة سرية او علنية

— التمس من جلالتك مقابلة خصوصية

فنظرت الملكة الى وصيفاتها وقالت :

— ايتها السيدات . هـذه مقابلة خصوصية . ثم قالت للحجاب والاعوان :

— ايها السادة . بعد نصف ساعة اريد ان تكون عربتي جاهزة لاذهب الى التريانون

فانسحب الجميع واقفل الباب ولبثت الملكة والاميرة وحدهما فاشارت الملكة الى مجلس وجلست وقالت :

— دعينا نجلس بعد امرك . ان لديك كلاماً وأنا اسمع

— بودي ان لا تسمعي لكلماتي فقط بل ان تفهميها وتعملي بموجبها

— سأفعل اذا كان كلامك يستحق ذلك

— ان كلامي جدير باهتمامك . لانني اريد ما فيه سلامة عائلتنا وحياتها وشرفها . واسمحي لي أولا ان ابلغ جلالتك رسالة عهد بها اليّ . فان اختي الشريفة الورعة مدام لويز قد اعطتني هذه الرسالة الى جلالتك وباسمها ألتمس من جلالتك قبولهـا وقراءتها حالا بحضوري

واخرجت رسالة مختومة فقدمتها الى الملـكة

اما ماري انتوانيت فلم تمد يدها ولكنها هزت رأسها علامة الرفض وقالت :

— ارجوك العفو يا سمو الاميرة ولكنني لا اقدر ان اقبل هذه الرسالة المرسلة من رئيسة دير الكرمليين في سان دانيس لانك تعلمين جيداً انها لما أرسلت اليّ رسالة مثلها مع سموك منذ سنوات قرأتها يومئذ وجاهرت انني لن اقبل ولن اقرأ رسائلها . فتكرمي بارجاع رسائلها اليها

فقالت مدام عادلايدة : — جلالتك تعلمين ان عملك هذا اهانة موجهة الى اميرة بيت الملك الفرنساوي

— الذي اعلمه ان الرسالة الاولى التي جاءتني من مدام لويز كانت اهانة وجهها الاميرة الى ملكة فرنسا . وسأصون مقامي الملكي من تكرار تلك الاهانة . ولا ريب ان رسالتها اليوم لا تختلف عن رسائلها الماضية . ففي رسالتها الاولى تهم قاضية عليَّ جهاراً وفيها مشورات لا معنى لها الا الوقيعة (١) فما الذي حوته رسائلها الآن

فقالت مدام عادلايدة غاضبة : — ربما كان فيها ما كان في الرسالة الاولى لان الاسباب نفسها لا تزال باقية لسوء الحظ فلا غرابة ان تكون النتائج نفسها .

— ارى بسهولة ان سموك عارفة بمضمون الرسالة ولذلك تلتمسين لي العذر في عدم قراءتها . ولا ريب ان الراهبة التقية كتبتها بحضورك في صومعتها الطاهرة فتركت موقتاً صلواتها لأجل الملك المرحوم لتشتغل قليلا بالامور الدنيوية ولتصغي للوشايات التي وجهتها الى ملكة فرنسا مدام عادلايدة او الكونت دي بروفانس او الكردينال دي روهان او سواهم من اعدائي

— وشايات ؟ بودي لو كان الامر قاصراً على الوشايات وان جميع هذه الامور التي تقلقنا وقيعة في غير محلها بدلا من ان تكون حقائق راهنة

— وهل تتفضلين سموك بابلاغي تلك الحقائق ؟

— تلك الحقائق مختلفة متعددة حتى لقد يتعذر التفريق بينها .

---

(١) تاريخ ماري انتوانيت . تأليف « كوندركور » صحيفة ٥٩

ان كل يوم بل كل ساعة من حياة جلالتك تأتي بحقائق جديدة

— ما كنت اظن ان سموك تعتنين بي الى هذا الحد

— ولا كنت انا اظن ايضاً ان خفتك تجرح على الدوام القوانين والعادات المقدسة المرعية . فأنتِ تفعلين ذلك وتستهينين بكل امر مرعي شأن الطفل الذي يلعب بالنـار وهو يجهل ان اللهيب قد يدركهُ فيحرقه . ولقد جئت الآن لانذرك مرة أخرى وللمرة الاخيرة

— الحمد لله انكِ تفعلين ذلك للمرة الاخيرة

— اتوسل اليـكِ ايتها الملـكة من اجل نفسك وزوجك واولادك ان تعدلي عن منهجك هـذا . سيري في خطة جديدة . اتركي الطريق المحفوفة بالخطر التي تفتح امامك ابواب الهلاك الاكيد

فتحولت وجه الملـكة من السماحة الى الانقباض وتلاشت ابتسامتها ورفعت رأسها وقالت بأنفة الملك :

— لقد كنت حتى الآن اقابل تعريضاتك ومغامزك بابتسامة وعدم مبالاة ناشئة عن البراءة ولبثت احترم سنك واذكر نظرات الخشونة التي ترمي بها الشيخوخة الشباب . على ان كلامك يحملني على اتخاذ خطة الاهتمام لانك ذكرت اسم زوجي واولادي فلمست قلبي . والآن هاتي ما لديك من التهم التي ترمينني بها

— اشير الى خفتك المتناهية . الى قصر بصركِ المعيب . الى ملاهيك الضارة . الى اسرافك وحبك للازياء وتعرضك للسياسة وملاهيك وولائمك و . . . .

فكانت ماري انتوانيت تعترض كلمات مدام عادلا يدذ ضاحكة مقهقهة . الامر الذي زاد غضب الاميرة وغيظها فقالت :

ـــ نعم انك خفيفة رعناء لانك تحسبين حياة الملكة يوماً كاملا لا تغرب شمسه ولا عمل لها فيه الا ان تغني وتضحك . وانت قصيرة البصر لانك لا تعلمين ان ازهار هذا اليوم الصيفي التي تفرحين بها انما تزهر على حافة هاوية تسقطين فيها بعد رقصك المعيب . وانت تلهين بمسرات واهية لا قيمة لها بدلا من ان تفعلي ما يليق بملكة فرنسا فتقضين حياتك في العزلة والتعبد والاعمال الخيرية . انت مسرفة لانك تبذلين مال فرنسا لانصارك . لعائلة بولينياك التي حسبوا انها تتناول ٢٠ في المئة من دخل المملكة وتسمحين لجماعتك ان يحشدوا الاموال . وانت عاشقة الازياء وتحطين من كرامتك بتمضية ساعات مع صانعة برانيط فقيرة . وتسمحين لرجل ان يرتب شعرك ثم يذهب و يضفر شعور سائر النساء تقليداً لشعر ملكة فرنسا . و بلغ من امرك ان الازياء صارت تسمى باسم ملكة فرنسا واصبحت نساء فرنسا الشريفات في حيرة من امر بناتهن اللواتي تمكنت منهن فكرة الازياء والخفة مكتسبة من خفة الملكة وازيائها فلا هم لهن الا هي وتركن الفضائل والمحامد . وقد اظهرت لك بالدليل الذي لا يمكنك دفعه ان هذا السقوط في الاخلاق الناشيء عن حب الزينة والازياء سببه انت دون سواك فضلا عن تهتكك وتهورك وقيامك باعمال منكرة تجرين اليها زوجك ملك فرنسا وابن الكنيسة الاكبر

فقالت الملكة : ـــ ما معنى سموك والى اي الملاهي تشيرين ؟

— اشير الى الحفلات التي تقـام في تريانون وفيها ما يعارض كل ادب صحيح ويخالف كل مألوف والى المساخر التي تتحول فيها الملكة الى راعية غنم وتبيح لسيدات بلاطها ان يفعلن فعلها مع انه كان يجب عليهن ان لا يظهرن امامها الا بالادب الكامل والوقار التام . اشير الى هذه السخافات التي لما افتتن الملك بمحاسن زوجته تناسى مقامه فاشترك فيهـا واجاز لنفسه الاشتراك في المساخر والملابس الغربية . وهـذه الملكة التي تملأ بقهقهتها وضحكها العالي حدائق تريانون والتي من حين الى آخر تبتهج بتقليد خوار البقر ومعاء الخراف — هذه الملكة لا تلبث ان تدخل ميادين السياسة وباليد التي زينت شعرها زينة مستغربة تتداخل في سياسة المملكة وتعترض سير الاعمال وتعزل الوزراء الامناء وتستبدلهم باصدقائها وتجعل الملك آلة لتحقيق ارادتها فقط

فنهضت الملكة غاضبة وقالت :

— لقد تجاوزت الحد ايتها السيدة . بل تعديت الحد الذي يجب ان يقف عنـده كل انسان حتى اميرات البيت المالك عند مخاطبة ملكتهم وولية أمورهم . لقد سمحت لك ان تنتقدي حياتي الخارجية ومسراتي وملابسي ولكنني لا ابيح لك التعرض لحياتي الداخلية وعلاقاتي مع زوجي وشرفي الشخصي . لقد اشرت الى اخصائي فانا اطلب منك ان تذكري اسماءهم . واذا قدرت ان تثبتي ميلي وعطفي الى واحد منهم الا العطف الذي يجوز ان تبديه الملكة لاتباعها ولأحد رعاياها الامناء اذ ذاك ارجو ان تعطي اسم ذلك الرجل الى الملك وان يجري جلالته التحقيق التام بشأنه .

نعم لي اصدقاء والحمد لله وهم يقدرون صداقتي قدرها ولا يتأخرون كل ساعة عن بذل نفوسهم وحياتهم فدى لملكتهم . ولي انصار وخدم واعوان ولكن ليس بينهم من يقول ان ماري انتوانيت عاشقة فقد كان الملك زوجي عاشقي الوحيد واسأل الله ان يبقى كذلك الى الابد . على ان عشق الملك لي هو الذنب الذي لا تغتفره لي الاميرات والكونت دي بروفانس وجميع حزب البلاط القديم . فقد وفقت الى الحصول على محبة زوجي ورغماً عن جميع الوشايات والفتن تنازل جلالته فرمق برضاء المرأة الشابة المسكينة الواقفة بجانبه وحيدة لا نصير لها وكانوا قد غرسوا في ذهنه انها غير جديرة بمحبته فرأى انها ليست كما زعموا من السذاجة والبشاعة والجهل وبدأ يراقبها ويميل اليها ثم نسي والحمد لله انها من اصل نمساوي وان سياسة سلفه اضطرته الى قبولها زوجة ثم احبها واقتبلت ماري انتوانيت محبة الملك هبة من الله وسعادة لحياتها . اجل . يا سيدي . اقول مفاخرة مسرورة ان الملك يحبني ويثق بي ولذلك نالت زوجته مكانة لم تنلها عماته الشريفات وانا التي يكرم ويحب وقد جعلني موضع سره ومشورته . وهذا ذنبي الذي لا يغتفر . فقد وفقت الى نزع نفوذ خصومي على زوجي . لقد انقضى زمن فيه كانت مدام عادلايدة تسترعي اذن الملك متى جاءته غاضبة تشكو مني وتتهمني بتهم كثيرة لا صحة لها الا من حيث انني تساهلت في بعض التقاليد القديمة . ومضى زمن استطاع فيه الكونت دي لامورك ان يشكو الملكة الى الملك لانها خرجت ومعيتها صباحاً باكراً الى حدائق فرسايل لترى شروق الشمس .

الملك يحبني وزال نفوذ مدام عادلايدة فما هي بعد الآن مستشار زوجي السياسي . فالوزراء لا يعينون في مناصبهم برضاها وارادتها وامور الوزارة تقضي بغير استشارتها . انا اعلم انك جعلت هذه الحالة في عداد جرائمي وان الكونت دي بروفانس يكتب المقالات الشائنة ضد ملكه وقرينته ويوزع مطاعنه في طول البلاد وعرضها وانه يرحب في منزله بخصوم الملكة واعدائها وانهم يطعنون علي فلا يوبخهم ولا يردعهم وانهم يصنعون الاسلحة التي يحاربونني بها هناك . ولكن احذروا ان تطعنكم هذه الاسلحة نفسها . فانما انتم توقعون المملكة في خطر وتنسفون العرش لانكم تعلمون الشعب ان يستهين بكل شيء مقدس وان لا كرامة للعرش وان في وسعهم توجيه كل طعن وتحقير الى لابسي تاج القديس لويس على رؤوسهم . ولكنكم انتم عمات الملك واخوته وجميع انصارهم والذين يتمشون من ورائكم انتم دون سواكم تهددون العرش بالزوال لانكم تناسيتم ان المرأة الاجنبية — او كما تقولون النمساوية — انما هي ملكة فرنسا سيدتكم وولية اموركم وما انتم الا افراد رعيتها . انتم خونة كثرت جرائمكم

فصاحت مدام عادلايدة : ما هذه اللهجة . . .

فاجابت الملكة بحدة وغضب : هذه لهجة امرأة رداً على الواشي . لهجة ملكة في مخاطبة متمرد من رعاياها . فاياك مقاطعتي او الرد على كلامي مرة أخرى . انك جئت الى قصر سيدتك الملكة لرميها بالتهم وهي قد اجابت كما يليق بمقامها فلم يبق لك ما تقولين . قد التمست مقابلتي مقابلة خصوصية مدة نصف ساعة

وقد انقضى الوقت . فمع السلامة . ان عربتي تنتظرني . وانا ذاهبة الى تريانون . على انني سأكم عن الملك هذه المطاعن الجديدة وأعدك ان انساها واغتفرها لك

و بعد ان حنت رأسها قليلا تحولت وانصرفت بعظمة وأنفة فاتبعتها مدام عادلايدة بنظرات الحقد ورفعت يدها مهددة نحو الذي انصرفت منه الملكة وقالت :

— سانتقم من هذه المرأة الوقحة التي تجرأت على تهديدي وتخالفتي والتي تدعو نفسها ملكتي . هذه النمساوية تكون ملكة على اميرة فرنساوية من العائلة الملكية ؟ الا اننا سنوقفها عند حدودها لتعلم منزلها من فرنسا . وسنعيدها الى النمسا

اما الملكة فلما عادت الى مقصورتها انطرحت على ديوانها و بكت وهي تقول لكبيرة وصيفاتها :

— آه يا كامبان . ما الذي اضطرت الى سماعه ؟ و باي كلمات تجرأون على مخاطبة ملكة فرنسا

فاسرعت مدام كامبان الى سيدتها وجثت امامها وقبلت يدها وقالت :

— جلالتك تبكين ؟ وهل سمحت للاميرة ان تبتهج اذ ترى انها حملتك على البكاء ؟

فنهضت الملكة وقالت :

— لا . لا . انني لا ابيح لها ذلك . سأفرح وابتهج واضحك لقد ارادت ان تجرحني ولكنني اصبتها بجراح لا تشفى فافهمتها صريحاً انني ملكة فرنسا وانها واحدة من رعيتي وانها متى

وجهت هذه المطاعن الى الملكة فقد اصبحت خائنة مجرمة

فصاحت مدام كامبان مذعورة :

— ان الاميرة لن تغفر هذه الاهانة وقد صارت عدوة لك فلا تتأخر عن الانتقام بأية الوسائل

— فلتفعل . انني لا اخافها ولا اخاف حزبها . لانني في حرز حريز من محبة زوجي وراحة ضميري . انهم لا يستطيعون الا اتهامي بامور لا تلبث ان يظهر كذبها واختلاقها فلا يثق باقوالهم احد

فتنهدت مدام كامبان وقالت : ان جلالتك لا تعرفين الناس وما يأتونه من الشر . وتعتقدين ان الصالح لا يكون جباناً وان الشرير لا يكون متهوراً . ولا تعلمين ان في وسع الشرير تهييج الرأي العام وافساده فلا يجد الصالح شجاعة كافية لمقاومة الفساد والرأي العام قوة هائلة فتتهم وتحكم وتعاقب دفعة واحدة في شخص واحد فمن استهان به يخلق لنفسه خصما اقوى من جيش عرمرم

— ولكنني لا اخاف هذا الخصم بل يجب ان يخافني ويرتجف امامي كما يخاف الاسد نظرة الفتاة لانني طاهرة بريئة . والآن دعينا من كل هذا فالشمس مشرقة بجمالها . والقوم ينتظرونني في التريانون . تعالي يا كمبان تعالي . ان الملكة تتحول الى زوجة سعيدة

واسرعت الملكة الى مقصورة زينتها ومدام كامبان تتبعها وهي تهز راسها ثم حاولت الملكة ان تحل بيدها مشدها تخلصاً من ثوبها الرسمي وقالت وهي تنزع ثوبها :

— بعداً لهذه الملابس الرسمية

ووقفت بملابسها البيضاء عارية الكتف والذراعين وقالت :

— هاتي ثوبي الابيض ووشاحي القماشي

فقالت مدام كامبان : — وهل تخرجين جلالتك بهذه الملابس البسيطة ؟

— نعم فانني ذاهبة الى التريانون . الى نزهتي الجميلة واعلمي ان الملك وقد وعد ان يقضي مساء كل يوم من اسبوع كامل في التريانون فنتمتع بالطبيعة والعزلة . ففي اسبوع كامل يكون الملك ملكا قبل الظهر ويصير بعد الظهر طحاناً في قرية تريانون ولذلك يجب ان اذهب الى هناك بهذه الثياب البسيطة فهاتي ثوبي الابيض

— عفواً يا ذات الجلالة يجب اولا ان ادعو وصيفات الملابس

وتحولت الى باب غرفة النوم فقالت الملكة : لاي شيء كل هـذه المظاهرات ألا اقدر ان اتخلص من قيود الرسميات ؟ ولماذا لا تساعديني انت على لبس هذا الثوب

— مولاتي . انا امرأة مسكينة لا حول لي ولا نفوذ واخاف عداء الاعداء . ان وصيفات ملابس جلالتك يحقدن على اذا تعديت على حقوقهن وابعدتهن عن شخص جلالتك . فمن حقوقهن وحدهن ان يضعن الثياب عليك وان يضعن النعل في قدميك فالتمس منك ان تسمحي بدخولهن

— لا بأس . سأحتمل هـذه القيود هنا في فرسايل ثم اصير حرة في التريانون

وبعد ربع ساعة خرجت الملكة من مقصورتها بثوبها البسيط واسرعت الى غرفة الجلوس حيث كانت تنتظرها دوقة بولينياك في مثل ثوب الملكة بساطة وركبتا العربة الى تريانون

الفصل الثالث

تريانون

حققت جياد العربة آمال ماري انتوانيت فوصلت الى التريانون على جناح السرعة فقفزت الملكة من عربتها كأنها فتاة لا تعرف شيئا من هموم الحياة ودخلت من الباب الصغير وقد اخذت ذراع صديقتها دوقة بولنياك تريد ان تسير بها الى عطفة صغيره من الحديقة ثم رأت الياور الخاص بها ينتظر أوامرها لمخاطبته باللغة النمساوية لغة قومها ووطنها الأصلي قائلة :

— لا تتبعني اليوم فأنت حر طليق كل هذا النهار كما انا حرة ايضاً . فاذا انت لقيت جلالة الملك اخبره انني ذاهبة الى القصر الصغير واذا شاء جلالته فلينتظرني في قريتي الصغيرة عند المطحنة ثم تحولت الى دوقة بولنياك وجرتها بعنف قائلة :

— والآن سيري بنا ايتها العزيزة جوليا ولنفرح ونبتهج . فالحمد لله لست ملكة الآن . بل انا مثل سائر الأفراد ولهذا سرني المجيء من الباب الصغير فلا سبيل الى الجنة الا من الباب الضيق وانا الآن ادخل الجنة . ألا ترين ان الاشجار والأزهار والغابه وكل شيء هنا حر بل ان السماء ذات لون آخر ترمقنا بعين زرقاء لامعة كأنها عين الله ؟

— ذلك لأنك تنظرين هذه الأشياء بعينيك يا ذات الجلالة

— ذات الجلالة ؟ اذاً انت لا تحبينني وقد استعملت هذا في

تخاطبني هذا اللقب . لقد كان لك عذر في فرسايل واما هنا فما عذرك ؟ ولا جواسيس هنا ولا رقباء

— عفواً ومعذرة فلن ازعج صديقتي في سرورها فهل تغفرين لي يا ماري ؟

و بلغ من ابتهاج الملكة انها ارادت الوصول الى القصر الصغير ركضاً فراهنت جوليا على انها تسبقها و بدأتا تركضان فكان السبق للملكة حتى اذا اقتربتا من القصر وقفت الملكة وقالت لجوليا :

— هاتي الرهان دليل حبك فقد اتفقنا ان تعطيني قبلة اذا سبقتك

— لا افعل ذلك هنا يا ماري ان ابواب الصالون مفتوحة واعوانك قد اجتمعوا هناك فاذا هم رأوا عنايتك الخاصة بي تولاهم الحسد

— فليعلموا وسيعلم الجميع ان جوليا بولينياك صديقتي الحميمة وانها بعد زوجي واولادي اعز الناس اليَّ

ثم ضمتها الى صدرها وقبلتها ودخلت قاعة القصر الصغيرة حيث اجتمع الأعيان والأصدقاء رجالا ونساء . فلما دخلت عليهم الملكة ولكن جاءتهم ماري انتوانيت الحسناء الساذجة فحيتهم بحني راسها ولبث الجميع في اماكنهم وملاهيهم لأن الملكة كانت قد امرت برفع الكلفة في تريانون وان لا يقفوا عند دخولها ولا يترك الرجال ملاهيهم والنساء اشغالهن ولذلك بقي الكونت بسينفال والكونت اوهيمار يلعبان الشطرنج فلما دنت منهما الملكة نهض الكونت دي فودري عن البيانو و بعد محادثة قصيرة قالت الملكة :

— والآن ايها الضيوف الكرام نذهب بعد موافقتكم الى مقابلة الملك وليختر كل واحد من الرجال سيدة يسير معها لأننا لا نريد ان نمشي في موكب بل في طرق مختلفة

فأسرع جميع الرجال الى الملكة يريد كل واحد منهم ان يتشرف بمرافقتها فشكرتهم بابتسامة وتناولت ذراع اكبرهم سناً البارون دي بسينفال وقالت :

— سر بنا ايها البارون . فانني اعرف طريقاً يجهلها الجميع فنصل الى الملك قبلهم

وانصرفا من باب الشرفة المؤدي الى الحديقة فقالت الملكة :

— نسير في الحديقة الانجليزية فنصل قبلهم جميعاً . . . ولكن انظر ايها البارون من القادم علينا

— هو دوق دي فروناك

— وا اسفاه انه قادم لوضع قواعد جديدة تزعجنا في لهونا

— وهل تأمرين ان اصرفه

— لا . لا . انه من اعدائي ويجب ان نراعي الاعداء

واذ ذاك اقترب الدوق دي فروناك فقابلت تحيته بلطف وقالت

— هل يريد مدير المراسح الملكية ان يخاطبني ؟

— اتيت لألتمس ان تسمحي لي بمقابلة جلالتك

— لك ذلك . وهي كما ترى مقابلة رسمية لأننا في قاعة عرش الله تعالى تظللنا القبة الزرقاء فهات ما لديك

— جئت لأقدم شكواي

فقالت باسمة : — وشكواك مني ؟

— جئت لأقدم شكوى واطالب بحق . فقد تفضل جلالة الملك وجعلتني المدير العام للمراسح الملكية واولاني السلطة التامة .

فقالت الملكة ببرود : — وما علاقة هذا بي ! قد تعين منصبك فعليك ان تتولاه باجتهاد

— ولكن يوجد مرسح يا جلالة الملكة يريد ان يكون حراً بعيداً عن سلطتي و بمقتضى واجبات وظيفتي يجب ان اطلب بالحاح ان يسلم هذا المرسح الى عهدتي

— لا افهم ما تقول . واي مرسح تريد

— اريد المرسح الموجود هنا في تريانون . فهنا تتمثل روايات هزلية وجدية وهنا مرسح مثل سائر المراسح دائم ومرتب ولذلك اطلب ان يسلم امره الي لأن الملك جعلني مدير المراسح الملكية العام

— ولكن فاتك ايها الدوق ان مرسح التريانون ليس من مراسح جلالة الملك . انه لي والتريانون مملكتي انا . اما قرأت الشعار المكتوب عند مدخل التريانون ، ومآله ان الملكة هي الآمرة الناهية هنا ؟ ألا تعلم ان الملك وهبني هذه البقعة لأتمتع فيها بحريتي الكاملة حيث تكون ملكة فرنسا صاحبة الأمر والنهي

— عفواً يا ذات الجلالة ما كنت لأتصور انه يوجد مكان في جميع فرنسا لا يكون الملك صاحب الامر والنهي فيه ولا يصدع باوامره

— اذاً لقد اخطا ظنك . ففي تريانون انا الملك وأوامري لا يعلى عليها

— هذا لا يمنع ان تكون اوامر جلالة الملك مساوية لأوامرك

في نفوذها . بل اذا شاءت ملكة فرنسا مخالفة تلك القوانين فأن غير جلالتها لا يتجاسرون على الاقتداء بها . لأنهم اينما كانوا لا يزالون رعية الملك ولذلك فانا في تريانون نفسها عبد خاضع طائع للملك واوامره وواجباتي تجبرني على العمل بها

— اعلم يا حضرة الدوق انك غير مقيد بالمجيء الى التريانون وانا ابيح لك عدم المجيء الى هنا واذ ذاك لا تضطر الى معارضة اوامر الملك

— ولكن يا مولاتي يوجد مرسح في التريانون

— هو كما تقول ولكنني انا ملكة فرنسا واميرات العائلة المالكة والضيوف الذين ادعوهم نقوم بنفقات مرسحنا . . فاعلم للمرة الأخيرة انك لا تملك السيطرة عليه متى كنا نحن الذين نمثل فيه . وقد افهمتك مراراً حالتي في التريانون فليس لدي بلاط ولا معية بل انا شخص عادي صاحبة املاك وما ادبره من الملاهي لنفسي ولأصدقائي لن يسيطر عليه سواي (١)

— يا ذات الجلالة ، ان المسيطر عليك ليس الشخص الواحد بل هو الرأي العام وانا اعلم انه في جانبي

ثم انحنى وتحول فانصرف بدون ان ينتظر اشارة الانصراف من الملكة . اما جلالتها فانها استأنفت المسير مع البارون بيسينفال وحدثته بما جرى لها في باريس لا انها تخاف شراً من الحالة الحاضرة خصوصاً بعد زيارة مدام عادلايدة الى ان قالت :

(١) كلمات الملكة « تاريخ ماري انتوانيت » تأليف « جونكور » صحيفة ١٠٦

— صدقني يا بيسينفيل ان الحالة ليست كما يجب ان تكون وفيها ما يوجب التخوف والحذر

الا ان البارون سكن خاطرها واذهب ظنونها وتخوفها فقالت :

— شكراً لك . انك بددت مخاوفي وسكنت خاطري واعدت شجاعتي

ومدت اليه كلتا يديها فتناولهما وضغط عليهما وما لبث ان ركع امامها وقبلهما بحرارة وقال :

— آه يا مليكتي وسيدتي هذا أصدق خادم لك عند قدميك . اقبلي مني يمين الطاعة الدائمة والحب الابدي . انك شرفتني بثقتك ودعوتني صديقك . الا ان نفسي وقلبي يتوقان الى لقب آخر . فالفظيه يا ماري انتوانيت . . . .

فانسحبت الملكة وقد امتقع لونها واستولت عليها الدهشة اولا فالاستياء من كلمات البارون . ثم لاحت على محياها علامات الغضب وقالت بلهجة العظمة الملكية :

— لقد سبقت فقلت لك ان الله يرانا ويسمعنا . وأنت قد ارتكبت امراً منكراً وقد سمعك الله فهو يتولى عقوبتك . انهض ايها البارون . ان الملك لن يعرف شيئاً عن هـذه الاهانة التي من شانها ان تجعلك من المغضوب عليهم ولكنني لا البث ان اطلع جلالته على فعلتك اذا انت عدت الى مثل هذا

ثم اشارت بانفة الى المكان الذي كانا يقصدانه وقالت :

— ايها البارون تقدم امامي وسأتبعك وحدي

فانصرف البارون مخزياً ولبثت تندب حظها اذ رأت ان اكثر

الاصدقاء لا قيمة لصداقتهم حتى ان هذا البارون المتقدم في السن والذي كانت تعتبره استاذاً لها تجاسر على اهانتها وانها بقيت وحيدة فريدة لا صديق تثق به . وما لبثت ان عادت الى ابتهاجها اذ وصلت الى البقعة التي انشأتها لنفسها وبنتها برسمها الخاص بمساعدة البناء الشهير هوبرت روبرت . هناك بيوت قروية صغيرة متلاصقة تقيم فيها القرويات وما هن الا نساء البلاط الشريفات . ومن حول الاكواخ جرت ساقية غزيرة تنصرف مياهها الى طاحونة هناك فتديرها وبقرب الطاحونة منزل منفرد محاط بالازهار هو منزل ماري انتوانيت وقد اختارت ان يكون مكانها هذا صغيراً بسيطاً وبجانبه بيت صغير هو بيت اللبن واليه كانت تذهب مع وصيفاتها في زي القرويات فيحلبن الابقار ويحملن اللبن في اكواب كبيرة الى بيت اللبن . وعلى مسافة بيت حاكم القرية وبجانبه بيت معلم المدرسة . فلما وصلت الى الطاحونة تحركت عجلاتها وبدات تدور ثم وقف على الباب الطحان بجسمه الضخم وملابسه البيضاء وقد ملأ غبار الطحين وجهه فصاحت الملكة صيحة الفرح واسرعت اليه ولكن قبل ان تدركه فتح باب منزل الحاكم المجاور واقبل المحافظ في ثوبه الاسود وحول عنقه الوشاح الاحمر وفي يده العصا الاسبانية ولها قبضة ذهبية وعلى رأسه قبعة مثلثة الزوايا . فمشى الى ماري انتوانيت ووضع كلتا يديه على جنبيه كما يفعل المستاء الناقم ووقف امامها وقال :

— ان استياءنا منك لعظيم لانك اهملت واجبات المضيف اهمالا معيباً . فكيف تعتذرين عن تاخرك الطويل . لان الازهار

قد طأطأت رؤوسها والبلابل انقطعت عن الانشاد والخراف في الحقول أبت ان ترعى العشب وقد استولى الظمأ على كل شيء هنا لانك غير موجودة وكل شيء يوشك ان يموت شوقاً اليك

واذ ذاك فتحت شرفة المدرسة وظهر الاستاذ متوعداً بعصاه وهو يقول :

— هذا غير صحيح . كيف تزعم ان كل شيء آيل الى الخراب وأنا هنا لاصلاح الحال . فمنذ انقطع العقلاء عن الدراسة اصبحت أنا استاذاً للحيوانات فانا اعلم الماعز الرقص والجديان المباسطة

فقهقهت ماري انتوانيت وقالت :

— أريد ان اختبر براعتك ولذا ارجو ان تقيم حفلة راقصة هـذا المساء في الحقول . وأما أنت يا حضرة المحافظ فارجو ان تتسامح قليلا وتغفر بعض هفواتي مراعاة لصغر سني

— وهل تحتاج قريبتي العزيزة الى من يعتني بها

— ما هذا يا كونت دي بروفانس . أراك لا تحسن تمثيل دورك وفاتك اولا انني لست الملكة في هـذا المكان وثانياً ان الاطراء ممنوع في تريانون

فانحنى الكونت الذي كان يمثل دور المحافظ وقال : — وهل تعد الحقيقة اطراء ؟

فقال معلم المدرسة وهو الكونت دارتواز : — هذا جواب خليق باستاذ . وانت يا أخي تجهل مبادىء علم السلوك فيجب ان تحضر الى مدرستي

فقالت الملكة : — والآن افارقكم لانني أريد اولا ان اقابل طحاني العزيز

واسرعت الى الطاحونة وصعدت على السلم الخشبي وطوقت الطحان بذراعيها فضمها اليه ضاحكا وادخلها الى الطاحونة فقبلت يد زوجها وقالت :

ــ اشكرك يا لويس لانك قابلتني هنا في مستعمرتي الصغيرة

ــ لقد صدعت بامرك أيتها العزيزة فانك امرت باجراء هذه المساخر وان اكون انا الطحان والكونت دي بروفانس المحافظ والكونت دارتواز معلم المدرسة . ونحن عبيد جلالة الملكة لا نخالف لها امراً

ــ أتذكر يا لويس قولك لي لما منحتني التريانون ؟ قلت لي « انت تحبين الازهار فساعطيك باقة كاملة منها . اعطيك تريانون الصغيرة [1] »

ثم سمعا نشيداً تنشده الاميرات والسيدات بلهجة قروية فاسرعا الى مقابلتهن ثم جاءوا الملكة بالمغزل فجلست تغزل ودولاب المغزل يدور كما كان يدور دولاب القضاء والقدر بمصير الملكة وهي لا تدري ما يضمره لها الزمان

وكان الملك قد انصرف الى الطاحونة ليرتاح . ولكنه لم يكن هناك وحده . فمن ذا الذي تجاسر ان يزعجه ؟ لا بد ان السبب كان خطيرا . اذ اشتهر ان الملك قلما كان يذهب الى التريانون ولكن متى فعل اراد ان يكون بعيداً عن الاعمال والمهام الرسمية . ومع هذا فقد جاء من ازعجه . ان البارون دي برتوي رئيس الوزارة جاء

---

(١) كلمات الملك . « مذكرات ماركيز دي كركوي » مجلد رابع

يلتمس مقابلة الطحان في تريانون ويذكره ان يكون ملكا فيها وينظر في امر خطير

الفصل الرابع

عقد الملكة

لما أعلن الحاجب قدوم البارون دي برتوي انسحب الملك الى مقصورته ونزع ملابس الطحان وارتدى ثيابه العادية ومن فوقها الرداء الطويل ووضع شارة وسام لويس ثم دخل الغرفة التي انتظره فيها كبير وزرائه فقال :

— عجل واخبرني ما الذي حدث حتى جئتني الى هنا ؟

— لقد حدث ما لم يكن منتظراً وأما أهميته فتتوقف على نتيجة التحقيق

— اذاً هناك جريمة ؟

— نعم يا مولاي انها جريمة غش وخداع تتعلق بمبالغ طائلة وأشياء ثمينة

— اذاً فالمسألة مالية ؟

— لا يا مولاي بل هي تمس شرف الملكة

فنهض الملك غاضباً وقال بحدة :

— وهل يجسرون على التعرض لشرف الملكة ؟

— نعم يا مولاي انهم تجاسروا على ذلك وقد دبروا مكيدتهم هذه المرة بعناية يتعذر معها الوقوف على الحقيقة . ألا تذكر

يا مولاي ان جوهري البـلاط (بوهمر) كان قد تشرف فعرض عليكم عقداً جميلا

ـ نعم اذكره وكان قد بلغني ان الملكة اعجبت كثيراً بالعقد ولكنها ابت ان تشتريه لانه يقتضي مالا كثيراً فاردت ان اشتريه وأقدمه لها فابت وأصرت على الاباء

ـ لا نزال نذكر يا مولاي جوابهـا الحسن لجلالتك وقد كررت باريس باسرها كلمات جلالتها عند قولها « عندنا جواهر اكثر مما عندنا مراكب فانفق المال على مشترى مركب[1] »

ـ ارى ان ذاكرتك قوية ايها البارون . فقـد مضى على هذا الحادث خمس سنوات وكان (بوهمر) قد حاول مراراً ان يحملني على مشترى العقد فلم يفلح واضطررت اخيراً ان امنعه من الاشارة اليه

ـ ولكنه ازعج الملكة بشأنه مراراً والظاهر انه كان منـذ سنوات قد جمع من كل الانحاء اثمن الجواهر وألف منهـا عقداً ثميناً فلما ابت الملكة ان تشتريه بمليوني فرنك رضي ان يبيعه بمليون وثمانمائة الف فرنك

ـ علمت كل هذا وان الملكة لما ضجرت منه امرت ان يمنع من الدخول الى البلاط

ـ فلمـا منعوه عمد الى الكتابة مرة كل اسبوعين فقرأت جلالتها تحاريره بحضور وصيفتها مدام كامبان وقالت ان العقد اذهب صوابه ثم احرقت تحريره على شمعة كانت امامها

(١) كتاب المراسلات السرية في بلاط لويس السادس عشر

ـ وكيف عرفت كل هذا

ـ من مدام كامبان يا مولاي اذ اضطررت الى محادثتها بشأن العقد

ـ وما علاقة الملكة بالعقد ؟

ـ مولاي . يقول بوهمر و يؤكد انه باع العقد لجلالة الملكة وهو الآن يطلب الثمن

ـ صدقت الملكة فقد اضاع الرجل عقله واذا كانت الملكة قد اشترت منه العقد فعلا فلا بد ان يكون ذلك بحضور شهود ولا بد ان يعلم بالامر وكيل خزينة جلالتها

ـ مولاى : يقول بوهمر ان الملكة امرت بمشترى العقد منه سراً بواسطة فريق ثالث وان هذا الفريق المؤتمن كلف ان يدفع لبوهمر ٣٠ الف فرنك نقداً وان يعده بدفع ٢٠٠ الف فرنك اخرى

ـ وما اسم هذا الوسيط المؤتمن ؟

ـ هو يا مولاي معلم ذمة جلالتك الكردينال البرنس لويس دى روهان

فصاح الملك ونهض مذعوراً :

ـ روهان ؟ وهل بلغ من جرأتهم ان يزعموا بوجود علاقة بين الملكة و بين هذا الرجل الذي تكرهه وتحتقره ؟ لعمرى انها حكاية ملفقة

ـ الا ان بوهمر صدقها ودفع العقد الى الكردينال وأحرز وعد الملكة بدفع باقي الثمن وهـذا الوعد معه وقد كتبته الملكة بخط يدها

ـ من زعم هذا . وكيف عرفت كل هذه الامور ؟

ـ عرفتها من كتاب ارسله الي بوهمر بعد ان حاول مراراً مقابلتي فلم يفلح ولم افهم كفايته من تحريره ولكنه قال فيه ان وصيفة الملكة اوعزت اليه ان يقابلني . ولذلك قابلت مدام كامبان فبلغ من اهمية ما علمته منها انني سألتها مرافقتي الى هنا لتروى لجلالتكم ما روته لي

ـ اذاً فلنذهب الى تريانون لأنني اريد ان اكلم مدام كامبان

حتى اذا وصل جلالته الى مقصورة زينة الملكة راى مدام كامبان فسألها عما تعلمه فقالت : ـ وهل يامرني جلالة الملك ان اتكلم قبل ان تعلم الملكة بالامر ؟

فتحول الى الوزير وقال : أرأيت ان الملكة تجهل الامر ؟ وهي لا تكتم عني سراً والأفضل ان تحضر الملكة

ثم نادى ويبر وامره ان يدعو الملكة لأمر خطير ثم قال للوزير : ولكي ترى وتسمع ان الملكة لا علم لها بشيء من كل هذا اريد ان تحضر محادثتي لها بدون ان تراك او تعلم بوجودك

وعلى ذلك امره ان يجلس في الغرفة المجاورة وامر مدام كامبان ان تبقي الباب مفتوحاً بعد انزال الستائر

وبعد نحو ربع ساعة اقبلت الملكة موردة الخدين فاسرع الملك وقبل يدها معتذراً عن ازعاجها وقال :

ـ كل ما في الامر ايتها العزيزة ان بوهمر جوهري البلاط يؤكد انه باع لجلالتك عقداً بمبلغ مليون وثمانمائة الف فرنك

ـ الرجل معتوه . وهل هذا كل ما اردته مني جلالتك ؟

فاشار الملك الى مدام كامبان وكانت عند وصول الملكة قد انزوت بعيداً وقال :

ـ ارجو من جلالتك ان تصغي لحديث مدام كامبان امس مع بوهمر

فذعرت الملكة وقالت بدهشة : ـ كيف هذا ! انت هنا ؟ وما المعنى ؟

ـ لقد جئت الى تريانون لاطلع جلالتك على حديث جرى لي مع بوهمر فوجدت انه كان قد سبقني الى هنا

وماذا يريد ؟ أما قلت لي يا كامبان انه لا يملك العقد الآن وانه باعه الى سلطان تركيا وارسله الى الاستانة ؟

ـ ذلك ماقاله لي بوهمر والآن استأذن جلالتك في سرد حديثي معه امس . فعلى اثر انصراف جلالتك الى تريانون مع دوقة بوليناياك جاءني الجوهري مضطرباً حائراً وسالني اذا كنت جلالتك قد تركت له شيئاً عندي . فاجبته سلباً وان جلالتك لا شأن لك معه وانك تعبت من الحاحه فقال : « ولكن يجب ان احصل على رد لكتابي الذي ارسلته اليها فكيف السبيل الى ذلك ؟ » . فاجبته : « لا سبيل الى ذلك لان الملكة احرقت كتابك بدون ان تقراه » فاجاب : « هذا مستحيل فالملكة تعلم انها مدينة لي بالمال »

فاجابت الملكة مذعورة : ـ أنا مدينة له بمال ؟ كيف يزعم ذلك

ـ قلت له ذلك فاجابني بكل ثقة ان جلالتك مدينة له بمليون وخمسمائة الف فرنك ولما سالته بدهشة عن سبب هذا الدين قال : « ثمن عقدي »

ـــ قد عاد هذا العقد المنحوس . وكأنه لم يصنعه الا لتكديري فهو ما برح كل هـذه السنوات يواصل ازعاجي بالعقد رغماً من امتناعي الدائم وقد بلغ من جنونه انه يؤكد انني اشتريته

فقال الملك : ـ الرجل عاقل فاصغي لبقية حديث مدام كامبان

فاستأنفت مدام كامبان حديثها وقالت : ـ فضحكت وأجبته كيف تزعم هذا الزعم وانت اخبرتني ان السلطان اشتراه منك . فاجاب ان الملكة امرته ان يقول ما قاله متى سئل عن العقد وان جلالتك اشتريت العقد منه بواسطة الكردينال روهان

فنهضت الملكة وقالت : ـ بواسطة روهان ؟ الرجل الذي اكرهه واحتقره ؟ وهل في فرنسا باسرها من يصدق هـذا الزعم ولا يعلم ان الكردينال احط الناس مقاماً عندي ؟

قلت للمسيو بوهمر انه مخدوع وان الملكة لا تجعل مثل الكردينال موضع سرها وثقتها فاجابني « انت مخدوعة فان للكردينال حظوة عالية لدى جلالتها و بينهما علاقات خاصة حتى انها ارسلت اليَّ بواسطته الدفعة الاولى وقدرها ٣٠ الف فرنك وقد تناولت الملكة هذا المبلغ من المال بحضور الكردينال من خزانتها الخاصة الموضوعة قرب الموقد في غرفة زينتها الخاصة » فاكدت له انه مخدوع فاضطرب وقلق وقال « يا الله ! ماذا يحل بي اذا صدق قولك . ولقد بدأ يخالجني الريب منذ وعدني الكردينال ان الملكة تلبس العقد يوم احد العنصرة وهي لم تفعل ولذلك كتبت اليها » فنصحت له ان يقابل البارون دي برتوي وفعل واسرعت انا لاطلع جلالتك على ذلك .فوجدت انه سبقني ولم ينصرف الا بعد ان

وعدته ان اعرض الامر على جلالتك اليوم

فتحولت الملكة الى زوجها وقالت بحدة وانفة : — مولاي لقد سمعت الحكاية . لقد اتهموا زوجتك بل اتهموا المملكة بوجود علاقات سرية بينها و بين الكردينال روهان . فانا اطلب التحقيق المشدد الدقيق . فادع الآن البارون برتوي للمداولة معه . وانا اصر على التحقيق

— ارادتك امر . ادخل يا برتوي

فلما دخل الوزير قال الملك لزوجته :

— اردت ان يكون شاهداً سرياً لمحادثتنا فيقف على الحقيقة . وسندعو الاب دي فيرمون ليشترك معنا في مداولتنا

ففي اليوم التالي اي ١٥ اوغسطس اجتمع في قاعات فرسايل جمهور غفير من خاصة الاعوان والاعيان رجالا ونساء اذ كان يوم عيد الصعود وقد اراد الملك والملكة وسائر رجال البلاط ونسائه ان يحضروا القداس الذي يقيمه في معبد القصر الكردينال لويس دي روهان بنفسه . ودخل الكردينال الى قاعة الاستقبال الكبرى وقد غصت بالناس وهم ينتظرون قدوم الملك والملكة ليتقدماهم الى الكنيسة . دخل الكردينال بملابسه الكهنوتية الرسمية وانصرف الى محادثة دوق دي كوندي والكونت دارتواز واذا بالباب قد فتح واقبل الحاجب فمشى بين الجماهير حتى وصل الى الكردينال وقال له : — ايها السيد ان جلالة الملك ينتظر نيافتك حالا في مقصورته . فاسرع الكردينال حتى اذا دخل غرفة الملك لم يكن فيها غير جلالته والملكة . واما البارون برتوى فانه انزوى في عطفة النافذة وهو

ينتظر ما يكون من أمر عدوه القديم الكردينال . فلما وصل الكردينال فاجأه الملك بقوله :

— ارى انك كنت تشترى جواهر من بوهمر ؟

— نعم يا مولاى

— وماذا صنعت بها ؟ أجبت . انني آمرك

— مولاى لقد حسبت انها اعطيت الى الملكة

— ومن كلفك بهذه المهمة ؟

— سيدة اسمها الكونتة لاموت فالوى . اعطتني رسالة من جلالة الملكة واعتقدت انني اخدم جلالتها اذا توليت هذه المهمة التي تفضلت جلالتها فعهدت اليّ بها

فقالت الملكة بازدراء : — انا اعهد اليك بمهمة لي ؟ وانت تعلم انني منذ ثماني سنوات لم اتنازل الى مخاطبتك بكلمة واحدة . وهل اعهد باعمالي الى رجل نظيرك ، طالب وظائف ؟

— ارى الآن ان بعض الناس قد خدعوا جلالتك بشأني . فسأدفع ثمن العقد . انني لم احاول الخديعة وقد ادركت الآن انهم خدعوني ولكنني سأدفع ثمن العقد

فقالت الملكة بغضب : — وهل تظن ان الامر يقف عند هذا الحد ؟ وانك اذا دفعت هذا المال تكفر عن الاهانة التي سببتها للملكة ؟ لا . لا بل انا اطلب التحقيق التام ليعاقب جميع الذين اشتركوا في هذه الدسيسة . هات البراهين على انك كنت مخدوعاً وانك لم تكن الخادع المحتال

— هو ذا براهين براءتي

واخرج من جيبه محفظة واخرج منها ورقة مطوية وقال : — هذه رسالة الملكة الى كونتة لاموت وفيها فوضت الملكة اليّ ان اشترى الجواهر

فتناولها الملك ونظر فيها ثم دفعها الى الملكة فما لبثت ان ضحكت ضحكا عالياً ورمت الكردينال بنظرات كالسهام وقالت : — ليست هذه كتابتي ولا التوقيع توقيعي . وكيف تجهل وأنت البرنس الملكي ومعلم ذمة الملك انني لا أوقع رسائلي بتوقيع « ماري انتوانيت من من فرنسا » ان الناس جميعاً يعلمون أن الملكات يضعن اسمهن الاول فقط وأنت تجهل ذلك

فاصفر وجه الكردينال واضطرب وخانته قواه وقال : أرى الآن ما لم أره من قبل . أنهم خدعوني

فتناول الملك ورقة عن المكتب وقال للكردينال : أتعترف انك كتبت هذه الورقة الى بوهمر وعوجبها أرسلت اليه ٣٠ الف فرنك دفعة اولى من قبل الملكة ؟

— نعم يا مولاى أعترف بذلك

فاستشاطت الملكة غيظاً وقالت : — انه يعترف بذلك وانه اعتبرني موضع سوء الظن

فقال الملك : — انت تؤكد أنك اشتريت العقد للملكة . فهل سلمته الى جلالتها بيدك ؟

— لا يا مولاي بل سلمته الى الملكة كونتة لاموت

— وفعلت ذلك باسمك ؟

— نعم باسمي . وفي الوقت نفسه أعطت الملكة وصلا بمبلغ

١٥٠ الف فرنك كنت قد أعطيتها للملكة سلفة لمشترى العقد

ـ وماذا كان جزاؤك من جلالتهـا ؟

فتحول الكردينال الى الملكة وقال : ـ اتريدين يا سيدتي أن ابوح بالحقيقة جميعها ؟ ثم قال للملك : ـ اعلم يا مولاي ان الملكة احسنت كثيراً جزائي على هذه الخدمة . ان جلالتها سمحت لي بمقابلتها في حديقة فرسايل

فلما سمعت الملكة هذه التهمة الجديدة المنكرة نهضت كاللبوة وامسكت بذراع زوجهـا وهزته بعنف وصاحت : ـ مولاي اصغ لما يقوله هذا الخائن . انه يتهم الملكة . فهل تطيق ذلك منه وهل تصونه ملابسه الكهنوتية ؟

فصـاح الملك بغضب : ـ لا . انها لا تصونه وأنت يا برتوى قم بالواجب عليك . وأنت ايها الكردينال يا من تجاسر على اتهام ملكتك وتشويه سمعة زوجة مولاك الملك . اذهب

فقال الكردينـال : ـ مولاى انا . . . .

فقاطعه الملك وقد نهض واشار الى البـاب قائلا : ـ لا تتكلم اذهب أبعدك الله

فتراجع الكردينال وخرج من مقصورة الملك الى القاعة الكبرى وقد غصت بجماهير الاعوان والاعيان وهم يضحكون و يتهامسون . ولم يتقدم الكردينال بعض خطوات حتى جاء من و رائه الوزير برتوى فخاطب رئيس الحرس بصوت عال قائلا :

ـ أيهـا الضابط انني اكلفك باسم جلالة الملك ان تقبض على الكردينال دى روهان وان تسوقه سجيناً الى سجن الباستيل

سرى هذا الصوت بين الجمهور كما يسرى الرعد وانقض عليهم كالصاعقة وهم يلهون ويفرحون فذعروا وتصاعدت اصوات الدهشة والرعب . ثم ساد السكوت وتحولت الابصار الى الكردينال الذي علت وجهه صفرة الاموات واذا بضابط شاب قد اقترب منه وعلى وجهه مثل صفرة الموتى أيضاً فتناول ذراع الكردينال العظيم بلطف وقال بلهجة الحزين

— أيها الكردينال انني باسم الملك أقبض على نيافتك وقد أمرت أن أذهب بك الى سجن الباستيل

فمشى الكردينال مسرعاً في الطريق التي فتحها له الجمهور باحترام وقال : — سر بنا يا بنيّ ما دام الملك قد أمر . هيا بنا نذهب الى الباستيل

ومشى حتى بلغ الباب ففتحه الضابط واذ ذاك تحول الكردينال الى الجمهور الذاهل وبكل عظمته الكهنوتية باركهم وانصرف . وعند ذلك انصرف الاشراف والاعيان يذيعون الأنباء المخيفة في فرسايل وباريس ويقولون أن الملك أمر بالقبض على الكردينال العظيم ومعلم الذمة الأكبر وهو في ملابسه الكهنوتية وان ذلك كان بارادة الملكة . وأخذ الخبر ينتشر وتزيد الوشايات والتهم بانتشاره

ولما امسى المساء كان مارات يصخب ويصيح في النادي « الويل للنمساوية . انها استدانت مالا من الكردينال لتشتري جواهر لنفسها بينما الشعب يجوع فلما تقاضاها الكردينال الوفاء أنكرت الدين وسمحت أن يجر من الكنيسة الى الباستيل .

فالويل للنمساوية » وجلس بجانبه سيمون الاسكاف فصاح « نعم . الويل للنمساوية نحن لا ننسى انها تشتري جواهر بالملايين ونحن لا نملك قوت يومنا . الويل للنمساوية » فنهض جميع اعضاء النادي وصاحوا « الويل للنمساوية »

الفصل الخامس

أصدقاء وأعداء

اضطربت باريس وامتلأت شوارعها بجماهير الناس يصغون الى الخطباء وقد ملأوا زوايا الشوارع وأطلقوا السنتهم طعناً على الملكة وتنديداً بالحادث الخطير ومنهم راهب فرنسيسكاني وقف خطيباً على زاوية التويلري وبلاس دي كاروسال فقال : « لقد حرموا الكردينال دي روهان العظيم من حقوقه وحريته . وهو غير خاضع لسلطة الحاكمين ولا سلطة لأحد عليه الا قداسة البابا لان شريعة فرنسا منذ أجيال تقضي بانه لا تجوز معاقبة كاهن الا بواسطة رئيسه الاعظم فهل بلغكم ايها الناس ماذا جرى ؟ لقد ابعدوا الكردينال عن دائرة سلطته وأبوا محاكمته أمام مجلس كنسي وقرروا محاكمته أمام البارلمان كأنه واحد من رعايا الملك ويتولى افراد من العلمانيين محاكمة هذا الكاهن العظيم من اجل ذنب لم يرتكبه . والا فما الذي جناه الكردينال وابن عم الملك ومعلم الذمة الاكبر ؟ جاءته امرأة ظنها موضع ثقة الملكة وانبأته ان الملكة تريد الحصول على جواهر لم يكن في وسعها ان تشتريها

لفراغ خزينتها من المال على أثر اسرافها المشهور وانها ترجو ان يسلفها المال وان يشتري الجواهر باسمه فلبي الطلب فراراً من ان تلجأ الملكة بتهورها الشهير الى رجل آخر من البلاط فتعطل شرفها الملكي . الا تفضلون ايها السادة ان تستدين الملكة المال من الكردينال الجليل على ان تستدين من البارون لاوزون أو الكونت كويني او الكونت فودريل صديق الملكة الخاص . . . اما احسن الكردينان صنعاً باسدائه هذا المعروف الى الملكة ؟

فوافق الجمهور على خطبة الراهب وهتفوا بالدعاء للكردينال وعلى المرأة النمساوية والملكة المولعة بالجواهر وصاح صائح : — اصغوا يا اهالي باريس ايها الخراف الساذجة التي يجز صوفها لتنام المرأة النمساوية على سرير ناعم . ساروي لكم ما حدث اليوم فقد سمعته من صديق في البرلمان جاء بصورة الخطاب الذي يلقيه الملك في جلسة اليوم . ربما لا تدركون ما اقوله لانني ضعيف بالنسبة اليكم كما هو شأن كل صغير اذا اراد ان يقاوم اعظم سلطة ارضية الا وهي الشعب

فطرب الجمهور لهذا الاطراء وصاح احدهم : — هذا مارات صديق الشعب فارفعوه الى حيث يشرف علينا ونسمع اقواله . فلما رفعوه الى مكان عال خطب فيهم ما خلاصته :

« ايها الشعب انتم الامة . انتم ولي عهد هذه المملكة . وسأوافيكم من موقفي هذا بنبأ غريب عما ارتكبته ملكة فرنسا بعد ان ملكت كل شيء من امورنا . سأتلو عليكم نص الخطاب

الذي ارسله الملك الضعيف اليوم الى البرلمان و به تبدأ محاكمة الكردينال روهان

« من لويس بنعمة الله ملك فرنسا ونافار تحية الى المستشارين الاعزاء الامناء أعضاء البرلمان

« لقد اتصل بنا ان رجلاً يدعى (بوهمر) وآخر يدعى (باسانج) قد باعا الكردينال روهان عقداً من الجواهر يقدر ثمنه بمليون وسمائة الف فرنك بدون علم الملكة زوجتنا المحبوبة كثيراً وقد افهمهما الكردينال انه يشتري العقد عملا باوامر الملكة وعرض عليهما بعض اوراق اعتقد انها من توقيع الملكة و بعد ان دفعا العقد الى الكردينال المذكور وتناولا القسط الاول من ثمنه خابرا الملكة. ورأينا بغضب عادل الاسم العزيز لدينا عرضة للاهانة محروماً من الكرامة التي يستحقها . فرأينا ان نبيح للكردينال عرض دعواه على مجلسنا ونظراً لما جاهر به امامنا من ان التي خدعته هي امراة تدعى (لاموت فالوى) رأينا من الواجب القبض عليه وعلى المراة المذكورة لنفضح جميع الذين اشتركوا في هذه المكيدة . ولذلك اقتضت ارادتنا ان تعرض المسألة على مجلس البرلمان الاعلى للنظر فيها واصدار الحكم اللازم »

وعلق مارات على هذا الامر ملاحظاته فقال للشعب المتأثر :

— أرأيتم النسيج الذي حاكته المرأة النمساوية حولنا ؟ فانها هي التي أرسلت هذه الرسالة الى البرلمان وانتم تعلمون انه لا ملك في فرنسا الآن وان فرنسا كلها هي التريانون والمرأة النمساوية . ففي كل مكان نرى الشعار الجديد « بأمر الملكة » وهي ملكة فرنسا

وليس الملك الا العبد الخاضع لاوامرها . وهي الآن قد داست واحتقرت الحشمة والدين في شخص الرجل الجليل الكردينال روهان . . . .

واذا بصائح من الشعب يقول : — حذار فقد اقبل الجنود . وفعلاً اقبلت فصيلة من الجند فتفرق الشعب واختفى مارات

ومن ذلك الحين بدأ التحقيق في قضية العقد وظل الكردينال سجيناً في الباستيل مكرماً من السجان محترماً من قضاة التحقيق في جميع الادوار وشاع ايضاً ان قد قبض على امرأة تشبه الملكة كثيراً ووضعت في الباستيل . اما اصدقاء الملكة فقد جاهروا ببراءتها ولكن عددهم كان قليلا بل كان يتناقص يوميا . واضطر الملك الى الاقتصاد في نفقاته كما اضطرت الملكة الى منع خيراتها الجمة عن اصدقائها خصوصا افراد عائلة بولينياك وكان الاعيان قد نقموا على جلالتها لتوجيه عنايتها الخاصة الى هذه العائلة فتفرقوا من حولها واحاط بالملك والملكة شيء كثير من الدسائس

الفصل السادس

المحاكمة

طال الاستعداد لمحاكمة الكردينال روهان الى سنة كاملة وفي ٣١ اوغسطس سنة ١٧٨٦ جرت المحاكمة . وفي غضون هذه المدة الطويلة تمكن اصدقاء الكردينال واقاربه من استمالة الراي العام اليه

واستمالة القضاة أيضاً وأعضاء البارلمان وتحويلهم عن الملكة . ولما أصبح صباح يوم ٣١ اوغسطس جلس اعضاء البارلمان وهم القضاة في مجالسهم باثوابهم السوداء الضافية تجاه الطاولة الخضراء وأقبل الكردينال يمشي مشية التيه بكل أبهة منصبه وحالما دخل بارك القضاة ثم قال ما مؤداه :

حدث منذ ٣ سنوات ان احدى قريباته مادام دي بولانفيليير جاءته بشابة وسألته ان يعولها . وهي سليلة عائلة شريفة من سلالة ملوك فرنسا القدماء من عائلة فالوى . ودعت نفسها كونتة (لاموت فالوى) وكان زوجها الكونت (لاموت) ثاني قائم مقام فرقة حرس في مدينة صغيرة فلم يساعده راتبه على نفقاتهما . وكانت الشابة حسناء ذكية ذات أدب بارع وأخلاق سامية وطبيعي ان يهتم الكردينال بامر سليلة ملوك فرنسا القدماء . فتولى اعالتها زمناً وتمكن بعد العناء والاجتهاد من حمل الملك لويس السادس عشر على تعيين معاش لها قدره ١٥٠٠ فرنك فذهبت الكونتة الى فرسايل لترفع شكرها شخصياً الى جلالة الملك . وعادت في الغد ترقص فرحاً وأخبرت الكردينال ان الملكة لم تكتف بمقابلتها بل عاملتها بلطف عظيم وسالتها أن تتردد عليها مراراً . فصارت لها مكانة خاصة عند الكردينال لانها كانت تذهب الى فرسايل وظهر له من وصف زياراتها انها كانت ذات منزلة سامية هنالك ولها كرامة خاصة لدى الملكة . الا ان الكردينال وجد نفسه على غير ذلك فان الملكة كانت تنفر منه وتعرض عنه ولم تتنازل مطلقا الى مخاطبته فتكدر كثيراً وحاول بوسائط جمة ان يصلح مركزه لدى جلالتها وأخيراً

شرح أمره للكونتة فوعدته ان تبذل نفوذها في سبيل استرضاء الملكة و بعد أيام قليلة أخبرته انها انجزت وعدها وانها عرضت كدره لجلالتها بالفاظ اثرت في عواطف الملكة فقالت للكونتة انها تصفح عما مضى اذا ارسل الكردينال الى جلالتها رسالة بخط يده يعتذر فيها عما اساء به اليها والى والدتها الامبراطورة ماريا تريزا. فاسرع الكردينال الى اجراء ذلك مسروراً. وارسل الى الملكة رسالة التمس فيها العفو عما بدر منه اذ طلب من الامبراطورة ماريا تريزا عند ما كانت الملكة لا تزال زوجة لولي العهد والكردينال يومئذ سفير فرنسا في فينا ان تردع ابنتها عن سوء مسلكها . هذا هو ذنب الكردينال العظيم وقد استغفر من جلالتها وفي الوقت نفسه التمس من جلالتها ان تسمح له بمقابلتها ليقدم احتراماته و يلتمس مغفرتها وهو جاث أمامها . و بعد مضي أيام قليلة دفعت اليه الكونتة ورقة كتبتها الملكة بيدها رداً على رسالته

فقال رئيس المحكمة : — وهل الورقة المذكورة باقية لدى نيافتك ؟

— انني منذ أسعدني الحظ بالحصول على تحارير الملكة ما برحت أحفظها معي وأحملها في جيبي وكانت تلك التحارير معي لما قبضوا علي في فرسايل . ولحسن حظي لم تكن هذه التحارير في مكتبي يوم دخلوه وأحرقوا ما فيه من الاوراق . واليك يا حضرة الرئيس التحرير الاول الذي جاءني من الملكة

واخرج التحرير من محفظته ووضعه أمام الرئيس ففتحه وقرأ ما فيه كما يأتي : —

« وصلتني رسالتك وسرني انك عدلت عن تصرفك الماضي . وفي الوقت نفسه أتأسف لانني لا أستطيع ان أجيب طلبك وان اسمح لك بمقابلتي . ولكن حالما تسمح الاحوال بذلك افيدك . فالى ذلك الحين الزم السكوت

ماري انتوانيت ملكة فرنسا » [1]

فاظهر القضاة دهشتهم لسماع هـذه الرسالة وعطفوا على الكردينال ثم كأن الرئيس لاحظ لاول مرة ان الكاهن العظيم الشريف كان واقفاً فقال بصوت جهوري :

— اعطوا نيافة الكردينال كرسياً

فشكر الكردينال له هذه العناية وجلس فقال الرئيس :

— تفضل يا صاحب النيافة باتمام حديثك

وهذه بقية رواية الكردينال :

« ان مثل هذه الرسالة من الملكة ملأت قلبه سروراً خصوصاً انهـا تعلله بامل مقابلتها فألح على الكونتة ان تمكنه من مقابلة جلالتها لانه رأى ان الملكة رغماً من غفرانها له وكتابتها اليه كانت لا تزال في كل محفل واجتماع تعامله باحتقار وازدراء

وحدث يوم احد وهو يقيم القداس لجلالة الملك والملكة انه تجاسر ودخل غرفة استقبال الملكة فرمته بنظرة احتقار وغضب وادارت وجهها عنه وقالت لكونتة بوليناياك بصوت عال « ما هذا التصرف المعيب ؟ يظن هؤلاء الناس انهم متى لبسوا الارجوان

(١) « تاريخ ماري انتوانيت » تأليف جونكور صحيفة ١٤٣

يفعلون ما يشاؤون و يتصورون انهم في درجة الملوك بل يجرأون على مفاتحتهم الحديث »

هذه الكلمات جرحت الكردينال وكدرته وتطرق الى خاطره لاول مرة الريب في صحة ما نقلته اليه كونتة لاموت . بل ارتاب في صحة تحرير الملكة اليه لانه لم يقدر ان يوفق بين عطف الملكة السري عليه ونقمتها الظاهرة واحتقارها له . فخاطب الكونتة بما خطر له وأنذرها انه لا يثق بشيء من رواياتها الا اذا مكنته في وقت قريب من مقابلة الملكة مقابلة شخصية . فسخرت الكونتة من ظنونه ووعدته خيراً فوعدها ان يعطيها ٥٠ الف فرنك اذا انجزت وعدها دليلا على شكره »

فقال الرئيس : — وهل انجزت كونتة لاموت فالوى وعدها لك ؟

فقال الكردينال : — أشعر يا سادتي أن قلب الرجل لا يزال ينبض تحت ثوب الكاهن ولا اجهل أن من العار على الرجل ان يفشي اسرار امرأة وليس من الشهامة أن يذيع الرجل تعطفات سيدة عليه . ولكنني مضطر أن أركب هذا المركب الخشن واذ أحتمل هذا العار في سبيل الدفاع عن الكهنوت ولانني لا اتجاسر ان اسمح بتدنيس ثوبي الشريف بوصمة الكذب . وقد أكون في هذا الحادث مخدوعاً على انني لا أجرأ على اهانة شرفي بان يقال انني كنت خادعاً ولذلك اراني مضطراً الى انشاء سر سيدة وملكة . اما جوابي على سؤال حضرة الرئيس فهو بالايجاب . نعم ان الكونتة مكنتني من مقابلة الملكة . جاءتني الكونتة بشعر

باسم وسألتني أن ارافقها بعد يومين الى فرسايل حيث اقابل الملكة في مكان معين من الحديقة وتقرران استبدل ثوب الكهنوت بملابس اهالي باريس . اما انا فقد فاجاني هذا التنازل من جلالة الملكة ولم اصدق لأول الأمر . فضحكت الكونتة وأطلعتني على تحرير من الملكة اليها توصيه فيه ان توعز الى الكردينال ان يكون شديدا الحذر في هـذه المقابلة وان يخاطب جلالتها عند المقابلة بصوت خافت لأن الجدران حولها كلها آذان وأن لا يخرج من مخباه الا متى ابدت الملكة الاشارة المتفق عليها . فلما قرأ الكردينال هذا الكتاب تلاشى كل ريب من ذهنه واصبح ينتظر الوعد على مثل مقالي الجمر الى ان حان الوقت المعين فذهب مع الكونتة متنكراً بملابس الأهالي في عربة عمومية الى فرسايل . فسارت به الكونتة الى شرفة القصر وأوعزت اليه ان يختبيء وراء شجيرات غضة وتركته لتنبيء الملكة بقدومه وكانت جلالتها قد الفت التنزه مساء كل يوم في الحديقة مع كونت وكونتة دارتواز . ولبث الكردينال في مخبأه يراقب الطريق التي تسلكها الملكة عند قدومها وقلبه يرقص فرحاً وما لبث ان رأى على نور القمر شبح امراة طويلة القوام في وشاح اسود وقد ازدان شعرها بدبابيس كبيرة ذات رؤوس زرقاء وهي تسرع السير ومن ورائها الكونتة لاموت فزال كل ريب من ذهنه اذ رأى الملكة ماري انتوانيت تدنو منه وقد لبست الثوب الذي لبسته يوم الأحد الماضي وسرحت شعرها على النمط الذي رآها فيه لما زار فرسايل يومئذ . فلما صارت على مقربة منه قالت :

— تقدم

فخرج الكردينال من مكانه وركع امام الملكة ولثم اليد اللطيفة التي امتدت اليه فتمالت الملكة همساً : — لسوء الحظ لا أقدر ان ابقى مع نيافتك هنا الا دقيقة من الزمان ولكنني لا اضمر لك سوءاً وعن قريب سأوافيك بالأدلة على رضاي التام . اما الآن فاقبل هذا الدليل على عطفي ورضاي

وتناولت الملكة وردة من صدرها فدفعتها اليه ثم اعطته علبة وقالت :

— هذه صورتي اكثر النظر اليها وتأكد دائماً انني . . . .

واذ ذاك قاطعتها الكونتة فدنت منها وقالت همساً :

— انني اسمع وقع اقدام فاستحلف جلالتك أن تسرعي بالفرار

وسمعت اصوات قريبة فتناولت الملكة يد الكونتة وقالت :

— سيري بنا يا صديقتي والى الملتقى يا حضرة الكردينال

فعاد الكردينال الى باريس مسروراً بالمقابلة من اقتضابها

وفي الغد جاءته الكونتة بتذكرة من الملكة اظهرت فيها اسفها القلبي لأن مقابلتها امس كانت قصيرة ووعدته بمقابلة أخرى في وقت قريب . وبعد هذا الحادث بأيام اضطر الكردينال الى مزايلة باريس قاصداً الالزاس للاحتفال بعيد ديني وفي اليوم التالي جاء الى الالزاس زوج الكونتة وقد اعطى ... ودفع الى الكردينال رسالة من الملكة مثل سائر رسائلها الملأى كلها اسرار وألغاز قالت فيها « لم يأزف الوقت الذي انتظره ولكنني ارجو ان تعود حالا الى باريس لأنني مهتمة بمسألة ... خاصة بي

شخصياً وساعهد بها اليك دون سواك واحتاج الى مساعدتك في انجازها . ان الكونتة لاموت فالوى تعطيك حل هذا اللغز » فاسرع الكردينال الى العمل بأمر الملكة وعاد الى باريس وقصد القصر الصغير الذي اشترته الكونتة بما حباها من المال فعلم منها السبب الذي من اجله استدعي الى العاصمة وانه يتعلق بمشترى عقد من (بوهمر وباسانج) كانا قد عرضاه تكراراً على الملكة وقد رأت الملكة العقد فافتتنت به ولكنها امتنعت عن مشتراه لارتفاع ثمنه ثم ندمت على امتناعها وتاقت نفسها الى الحصول عليه فارادت ان تشتريه سراً فلا يعلم الملك بذلك وان تسدد ثمنه في خمسة اقساط مما تقتصده من نفقاتها الخاصة . على ان بوهمر كان ينوي ارسال العقد الى الاستانة وقبل ان يرسله عرض على الملكة لآخر مرة ان تشتريه وانه يرضى بشروطها . وكانت خزينة الملكة فارغة يومئذ لأنها اكثرت من الاحسان الى الفقراء في فصل الشتاء الماضي . ولما كانت راغبة في مشترى العقد فانها تعطفت فشملت الكردينال بعناية خاصة وعهدت اليه ان يشتري العقد باسمها على ان تعطيه ورقة بخط يدها بما لَ التفويض بشرط ان لا يطلع عليها الا الجوهري بوهمر عند مشترى العقد . وأن يدفع الكردينال القسط الاول وقدره سمائة الف فرنك من ماله الخاص وتدفع الملكة المليون الباقي اقساطاً قدرها مائة الف فرنك كل ثلاثة شهور وعند تسديد القسط الثاني تعيد الى الكردينال المال الذي دفعه وقدره سمائة الف فرنك . فسر الكردينال بما رآه من عطف الملكة وما ميزته به من دليل الرضى فاكتفى بالتفويض من خط الملكة وبعد

مضي يومين فقط جاءته الكونتة بالتفويض المطلوب مؤرخاً من التريانون وعليه توقيع جلالتها . على ان الكردينال داخله شيء من الريب فتحول الى صديقه ومستشاره الكونت كاليوسترو واخذ رأيه في الأمر بعد أن باح له بالحقيقة وكان كثيراً ما ينبيء الكردينال بما يتراءى له من مستقبله . فاستقدم الكونت الارواح بحضور الكردينال ذات ليلة وسألها رأيها فقالت ان الامر جدير بمكانة الكردينال وان العاقبة حسنة وانه يضمن صداقة الملكة بخدمتها ولا يلبث ان يتمكن من خدمة فرنسا والعالم بذكائه ومعارفه عن طريق رضى الملكة وعطفها . وعند ذلك تلاشى كل ريب من خاطره واسرع فذهب الى (بوهمر) الجوهري وافهمه انه يريد ان يشتري العقد باسم الملكة واطلعه على تفويضها المكتوب بخط يدها ودفع له ستمائة الف فرنك نقدا فدفع الجوهري العقد الى نيافته وكان ذلك قبل الحفلة الكبرى بيوم واحد وقد ارادت جلالتها ان تزين عنقها به في تلك الحفلة وتقرّر ان يحضر رسول امين من الملكة فينقل العقد اليها من منزل الكونتة . ثم ان الكونتة سألت الكردينال ان يكون حاضراً ساعة تسليم العقد بشرط ان يختبيء فلا يراه الرسول

وبناء على هذا الاتفاق ذهب الكردينال الى قصر الكونتة مساء اول فبراير سنة ١٧٨٤ وبمعيته خادم مؤتمن يحمل العقد في علبته . ولما وصل نيافته الى باب القصر تناول العقد بيده ودفعه الى الكونتة فسارت بالكردينال الى زاوية خفية مجاورة لغرفة جلوسها وبين الزاوية والغرفة نافذة زجاجية ليتمكن الكردينال من مشاهدة

ما يجري ولكن بغير وضوح تام . و بعد قليل فتح الباب الكبير وقال قائل :

— في خدمة جلالة الملكة

ودخل رجل في ملابس خدام الملكة وكان الكردينال قد رآه مراراً لدى الكونتة واخبرته انه موضع سر جلالتها . وما لبث الرجل ان طلب العقد باسم سيدته فتناولته الكونتة ودفعته الى الرسول فانحنى شاكراً وانصرف . وفي تلك الدقيقة شعر الكردينال بسرور تام لانه أدى خدمة لملكة فرنسا زوجة الملك ووالدة ملك فرنسا العتيد ليس فقط في مساعدتها على مشترى العقد بل لانه انقذها ايضاً من الاضطرار الى التماس هذه المساعدة من أحد رجال البلاط

فقال رئيس المحكمة : — والآن ارجو من نيافتكم الجواب على ما يأتي : هل شكرتكم الملكة ماري انتوانيت شخصياً على الخدمة التي اظهرتم انكم قدمتموها لها وما الذي تم بشان الاقساط التي تعهدت الملكة بتسديدها ؟

— منذ انجزت هذه الصفقة لم أصادف الا العناء والتكدير والاهانات وهي جزائي الوحيد . فان الملكة من ذلك الحين أعرضت عني اعراضاً تاماً فلم توجه اليَّ لفظة واحدة بل انها لم تلبس العقد في الحفلة مع انها أُرسلت فاخذته قبل موعدها بليلة واحدة ولما بينت شكواي للكونتة تفضلت جلالتها فارسلت اليّ تذكرة قالت فيها انها وجدت العقد أثمن من ان تلبسه في ذلك الاحتفال وانه يستلفت نظر الملك والجمهور . فلم يداخلني ريب الى ان ازف

اليوم الذي وعدت الملكة ان تدفع فيه القسط الاول فلم يصلني خبر منها ولا هي خاطبت الجوهري بهذا الشأن فداخلني الريب عند ذلك واستولى عليّ خوف عظيم وللحال استدعيت الكونتة وسألتها حل هـذا الاشكال فقالت انها كانت قادمة اليّ لتخبرني بناء على اشارة الملكة ان بعض النفقات المتاخرة حالت دون تسديد السمائة الف فرنك التي دفعتها أنا لبوهمر وانها مضطرة الى الاكتفاء بدفع فائدتها البالغة ٣٠ الف فرنك فقط وان جلالتها تسالني الرضى بذلك الآن والوثوق من التفاتها ورضاها فصدقت الرواية وابلغت الملكة انني خدمها الامين ثم وعدتني الكونتة باحضار المال غداً . وفي غضون ذلك حدث ما أعاد الي الريب في صدقها فانني زرت دوقة بوليناياك وفيما أنا لديها جاءتها رسالة من الملكة فسألتها ان ارى خط جلالتها فاجابت طلبي و . . . .

ثم انقطع الكردينال عن الكلام ولزم الصمت وحنى رأسه وأخذ يحرك فمه كانه يصلي

وساد الصمت على الحاضرين الى ان عاد فرفع رأسه فقال الرئيس :

— رأيت يا حضرة الكردينال رسالة الملكة فهل كان خطها مثل خط الرسائل التي جاءتك ؟

فاجاب الكردينال متألماً : — لا . لا . بل كان خطها يختلف كثيراً وانما في التواقيع بعض الشبه ولكن امضاء الملكة في رسالتها الى الدوقة كان « ماري انتوانيت » فقط وليس « ماري انتوانيت من فرنسا » كما في رسائلها اليّ فاسرعت الى منزلي ولبثت أنتظر

قدوم الكونتة على أحر من النار . فجاءت باسمة الثغر ودفعت الي ثلاثين الف فرنك فبينت لها تخوفي وظنوني فذعرت في اول الامر واضطربت قليلا ثم قالت ان الرسائل لم تكن بخط يد جلالتها وانها انما القتها على من كتبها الا ان التوقيع توقيعها وانها تقسم بصحة ذلك فعاد الي روعي وسكن اضطرابي و بعد انصرافها بقليل جاءني الجوهري (بوهمر) وأخبرني ان الملكة لم تدفع له مالا وانه طلب الثمن من جلالتها مراراً كتابة فلم يحصل على جواب ولم يفلح في مقابلتها فخاطب اكبر وصيفات جلالتها وهي مدام دي كامبان وانه عائد الآن من عندها فاخبرته ان العقد ليس في حوزة الملكة وان الكونتة لاموت لم تقابل جلالتها ولا مرة وان احد الناس قد خدع الجوهري وانها ستسرع الى الملكة في التريانون لتطلعها على هذه المكيدة . هذا ما حدث يوم الخميس . فلما كان يوم الاحد ذهبت الى فرسايل لاقامة القداس فحصل ما تعلمونه الآن وهذا كل ما لدي

فقال الرئيس : — انني اشكر نيافتكم على الصراحة التي ابديتموها ولا ريب انكم شعرتم بتعب فعودوا الى الباستيل

فنهض الكردينال وانحنى للمجلس فوقف جميع القضاة وردوا التحية بمثلها (١)

و بعد ان انصرف الكردينال قال الرئيس : — احضروا المتهمة كونتة لاموت فالوى

فتحولت الابصار الى الباب وما لبثت ان ظهرت سيدة نحيلة

---

(١) الحادث تاريخي راجع (مذكرات الاب جيورجيل) مجلد أول

الجسم حسنة القوام في اجمل زينة واحسن ثياب وقد ازدانت رأسها بالازهار وعلى ثغرها ابتسامة هزء واستخفاف حتى وصلت الى المكان المعين لها بين مظاهر الغضب والاستهجان من الحاضرين فقالت بصوت رنان :

— ايها السادة . هل نحن في دار تمثيل يقابل الممثل فيها بالاستحسان او الاستهجان ؟

اما الرئيس فانه أهمل سؤالها واشار الى الحاجب اشارة فهمها وما لبث ان احضر كرسياً من الخشب نزلت عن جانبيه سلاسل حديدية فوضعها بجانب المرأة وقال لها :

— اجلسي

— كيف هذا ؟ ومن يجرأ على تقديم كرسي المجرمين اليّ

— اجلسي . هذا كرسي المجرمين وهذه السلاسل نقيد بها من ابى الجلوس مختاراً

فلما امتنعت غاضبة قال :

— اذا لم تجلسي استدعي البوليس فيجبرك على الجلوس و يضع السلاسل حول ذراعيك فلا تستطيعين القيام

فأجالت بصرها فيما حولها ورأت من القضاة والحاضرين جميعاً مظاهر الاستياء منها والنقمة عليها فرفعت رأسها بانفة وابتسمت ابتسامة الاستخفاف بكل شيء وجلست فقال الرئيس :

— من أنت أيتها السيدة وما اسمك وكم عمرك ؟

فقهقهت الكونتة ضاحكة وقالت :

— يظهر يا حضرة الرئيس انك لم تألف مخاطبة السيدات

كثيراً والا لما سمحت لنفسك ان تسال سيدة مثلي في عنفوان شبابها عن عمرها . فانا اتسامح لك فاعذرك واتجاهل سؤالك هـذا لأرد على سائر اسئلتك . اما اسمي فهو الكونتة لاموت فالوى الفرنساوية آخر سلالة ملوك فرنسا الاولين . ولو شمل العدل هذه البلاد التي تولاها ملك احمق وملكة رعناء لكنت الآن جالسة على عرش فرنسا ولكانت المرأة المالكة الآن جالسة محلي في مجلس المجرمين تدافع عن نفسها في السرقة التي ارتكبتها لان جواهر (بوهمر) لدى ماري انتوانيت وليست لديّ

فقال الرئيس : — انت كاذبة في جوابك اذ تزعمين انك سليلة ملوك فرنسا والحقيقة ان اباك كان قروياً فقيراً في قرية (اوتوبل) يدعى (فالوى) وروى كاهن القرية لمدام دي بولانفيلبير صاحب القرية ان لدى القروي فالوى بعض اوراق عائلية يظهر منها انه ابن طبيعي من سلالة العائلة المالكية القديمة وسألها الكاهن ان تعطف على اولاد القروي في جوعهم وفقرهم فاستقدمت اليها ابنة فالوى . وحقيقة الامر ان آخر رجال عائلة فالوى كان مُزَوِّراً فاعدموه فجدك الاكبر هو الابن الطبيعي لهذا المزور وهـذه كل علاقتك بعائلة ملوك فرنسا القدماء ولما جاءت ابنة فالوى الى مدام بولانفيلبير ولها من العمر ١٢ سنة رضيت عنها وتولت تربيتها وبعد قليل هجرت الفتاة منزل السيدة مع ضابط يدعى الكونت لاموت وتركت رسالة قالت فيها انها سئمت حياة العبودية ولعنت الذين ارادوا أن يمنعوها عمن تحب واعترفت انها سرقت نقود السيدة وقدرها ٢٠ الف فرنك

— اخطأت يا حضرة الرئيس فانني لم أسرق المال ولكنه المهر الذي وعدتني به بدليل انها لم تطالبني ولم ترفع امري الى القضاء

— ذلك لانها أبت الفضيحة فتركت عقوبتك للقاضي العادل الجالس في السماء

— ولا أظنه ترك مجلسه في السماء ليجلس في كرسي الرياسة هنا

فلم يحفل الرئيس بكلامها واستأنف بيانه فقال :

— وبعد ان زفت ابنة القروي الى الضابط لاموت أراد ان يرفع مركزه وان يزيد قدرته بوسائل مختلفة . فكان يدرّس الفروسية والمبارزة وكان بارعاً في لعب الورق حتى انه لم يخسر مرة واحدة ولما ظهرت حيلته طردوه من فرقته فسعى مع زوجته وراء رزق آخر فذهب الرجل الى جنوبي فرنسا ليواصل المقامرة وجاءت زوجته الى باريس ورأس مالها جمالها واسمها الشريف . هذه ترجمة حياتك على حقيقتها

— وفاتك ياحضرة الرئيس انني صديقة الكردينال دي روهان وموضع ثقة الملكة ماري انتوانيت وقد عزما الآن ان يجعلاني ضحية ما فعلاه . ولا ذنب لي الا انني ساعدت الملكة على احراز الجواهر وساعدت الكردينال المفتون على التقرب من معشوقته وسهلت له مقابلة الملكة . والكردينال لا ينكر انه قابل الملكة في حديقة فرسايل وانه قبل يدها وانها اعطته ورقة وستضطر الملكة الى الاعتراف بان العقد في حوزتها . فاي ذنب لي بعد هذا ؟

— ذنوبك لاتحصى فهي الخديعة . الكذب . التزوير والوقيعة. فقد خدعت الكردينال بزعمك انك تعرفين الملكة وانك صديقتها وموضع ثقتها وزورت امراً وأغريت سواك على تزوير خط الملكة ودفعت الى الكردينال رسائل تزعمين انها من الملكة وحملت الكردينال على الاعتقاد ان الملكة تريد ان يشتري لها العقد فلما تم كل ذلك ارتكبت جريمة السرقة لان الملكة لا علم لها بشيء من أمر العقد ولم تتشرفي بمقابلتها على الاطلاق ولا خاطبتك بكلمة واحدة ولم يرك واحد من اعوان الملكة

— اذاً هم ينكرون كل شيء ولكن الحق يعلو ولا يعلى عليه ولن ينكر الكردينال ان الملكة سمحت له بمقابلتها في فرسايل وانها شكرت له صنيعه في مشترى العقد

— ستظهر الحقيقة بدون ريب فانا أدعو الآن النائب العمومي المسيو دي بوريلون ليجاهر بدعواه على كونتة لاموت فالوى

فنهض النائب العمومي وألقى خطبة بين فيها مساعي المرأة وحيلتها ووصف معيشتها السافلة اولاً وانها كانت ترسل رسائل الاستجداء الى الاعيان وخصوصاً الى الكردينال المعروف بكرمه وسخاء يده وكيف ذهب اليها في منزلها الحقير وكيف اعتنى بها حرصاً على كرامة ملوك فرنسا وكيف خدعته بدعوى علاقتها مع الملكة ثم قال :

— اما الكردينال فقد وثق بجميع ما قالته له الكونتة ولم يخطر له انه ألعوبة في يد هذه المحتالة التي استفادت من شهامته لخدعته وكانت تعلم اخلاصه للملكة وشكواه من استخفافها به

جهاراً ثم علمت بامر العقد الذي طالما عرضه بوهمر على جلالتها فابت ان تشتريه فدبرت حيلتها وكان النجاح حليفها . فحملت الكردينال على الاعتقاد ان الملكة تسمح له بمقابلتها اذا هو أثبت اخلاصه فكان واسطة لمشترى العقد . وتم الامر على ما بينه نيافته بصراحة واخلاص . فاتمّ المشترى ودفع القسط الاول وقدره ستماية الف فرنك وأعطى العقد الى صديقة الملكة الكونتة لاموت بعد ان ساعدته على مقابلتها وقالت له الملكة انها استلمت العقد واكدت له رضاها . وجاءته الكونتة برسالة شكر من جلالتها فابتهج نيافته لنجاح مساعي الكونتة وأراد ان يكافئها فرتب لها معاشاً سنوياً كل حياتها قدره اربعة آلاف فرنك فقبلته شاكرة بينما هي تحتال عليه وتفرح لنجاح حيلتها وكان زوجها شريكاً لها في مساعيها اذ كانت قد استقدمته الى باريس واصبحت غنية فملأت قصرها بالرياش الثمين واحاط بها جيش من الخدم والاعوان وكان زوجها قد استدعي لاعمال خاصة الى لندن فكان يواصلها بالتحف والهدايا و واحدة منها بلغ ثمنها ٢٠٠ الف بنتو . ثم لما عاد من لندن اخبرها انه اشترى قصراً جميلاً في (بارسور اوب) واليه نقلت جميع ما عنزلها المأجور . وجميع هـذه الثروة جاءتها من طريق العقد فانها حلت الحجارة وباعت الصغيرة منها في باريس واما الحجارة الكبيرة فباعها زوجها في لندن ومع كل هذه الثروة والابهة لم يخطر للكردينال اقل خاطر سوء بشأنها لانها كانت متى زارها تستقبله في غرفة صغيرة حقيرة من غرف المنزل وكانت ملابسها بسيطة قليلة الثمن وكانت تقول له ان سـيدة غنية تقيم في المنزل

وقد سمحت لها بالاقامة في الغرفة الصغيرة . فلما خافت من افتضاح امرها زارت الكردينال مودعة زاعمة انها ذاهبة للاقامة مع صديقة لها خارج العاصمة ولكنها انتقلت الى قصرها الجديد وفيما هي هناك علم البوليس السري ان السيدة المثرية الشريفة انما هي المحتالة لاموت فالوى وقبض على زوجها وشريكه المدعو كونت كاليوسترو وفر سائر انصارها فلم نهتم باقتفاء آثارهم لان الحقائق واضحة لا تحتاج الى اثبات فان بعض الجواهر التي باعها زوج الكونتة في لندن اعيدت الى باريس وعرفها الجوهري بوهمر . واهتدينا الى الصايغ الذي اشترى من الكونتة ذهب العقد ولا ريب انها تمكنت بالحيلة من الحصول على العقد والانتفاع بثمنه فهي اذاً سارقة ومحتالة . فضلا عن انها مزورة لانها زورت خط الملكة وزورت توقيع جلالتها فهي مزورة وقد تجاسرت على تقليد توقيع الملكة وجر اسم جلالتها المقدس الى حبائل حيلتها واعمالها المنكرة

فقالت الكونتة : — كل هذه الاقوال لا قيمة لها الا اذا أيدها البرهان . ولديَّ البراهين على براءتي . فان الكردينال قابل الملكة واعطته وصلاً بالعقد . ولا ذنب لي اذا كانت قد غيرت توقيعها وانما هذا دليل على براعتها في الاحتيال . على انني اشهد الله انني بريئة وعلى الملكة ان تثبت انها لم تقابل الكردينال في حديقة فرسايل وانها لم تضع توقيعها على التعهد والتحارير المرسلة الى نيافته واذ ذاك يجوز اتهامي فما دامت لا تنفي هذه الحقائق بالدليل فان الله العادل لا يسمح باتهامي وانا بريئة

فقال النائب العمومي : — صدقت فيما تقولين فان الله لا يسمح باتهام الابرياء ولذلك قد فضح حيلتك . واماط النقاب عن خديعتك وسآتيك بالبراهين الحية الناطقة . أيها الحاجب ادخل السيدة التي تنتظر في الغرفة المجاورة

وبعد قليل عاد الحاجب فقال : — ان السيدة تستأذن المجلس لانها ستتأخر بعض دقائق . وبما انها ستفارق طفلها مدة التحقيق فهي تريد ان ترضعه

فوافق المجلس على الانتظار وخضعت الشريعة لصوت الطبيعة وانتظروا جميعا ريثما تتمكن الشاهدة من ارضاع طفلها . وبعد قليل فتح باب غرفة الشهود وظهرت امراة فذعر القضاة والجمهور ودهشوا لمنظرها

ان الملكة نفسها قد جاءت . فانهم رأوا في المرأة الداخلة عليهم قوام الملكة ووجهها بجماله الفتان وفمها الصغير وجبهتها العالية وشعرها الجميل بتسريحتها المشهورة وعليها ملابس الملكة التي تلبسها في حدائق فرسايل . فدهش الجمهور وهمس بعضهم « لقد جاءت الملكة بنفسها لتقدم شهادتها » اما الكونتة فانها نهضت عن كرسيها مذعورة فقال الحاجب : — لماذا تنهضين عن كرسيك ؟

— انما نهضت لاقدم تحيتي لملكة فرنسا كما يجب على واحدة من رعاياها ولكنني لا أرى سواي فعل فعلي فهم قد لزموا مجالسهم بحضور جلالتها ولذلك سأقتدي بهم

اما الرئيس فانه قال للمرأة الداخلة : — تقدمي ايتها السيدة وما اسمك ؟

— لقد كنت يا سيدي فتاة مغرورة اكره العمل واحب البطالة والاسراف معاً واميل الى الثياب الحسنة الى ان عشقت الضابط جورج فعدلت الى حياة الفضيلة ولما ولد ولدي الصغير بذلت جهدي لأكون زوجة امينة واماً صالحة . وقد كنت ادعى حتى الآن (الآنسة اوليفا) فقبضتم عليَّ في بروسل قبل موعد زواجي الرسمي بثمانية أيام وكان جورج قد وعدني ان يعقد قراننا رحمة بولدي ولكنكم اسأتم اليَّ فولد ولدي في السجن اثناء غياب والده وسوف تعترفون انني بريئة فتعطوني شهادة ببراءتي انصافاً لي لدى ولدي متى اخبرته انه ولد في السجن فاسمي الآن الانسة اوليفا ولكن حالما يطلق سراحي ازف الى زوجي فيصير اسمي مدام جورج

فقالت الكونتة بصوت خشن :

جلالتك تمثلين اليوم دور القروية الساذجة ومشهور عنك ولعك بتمثيل الادوار فلا تنظري اليَّ يا ملكة هذه النظرات واذكري انك جئت سراً من فرسايل لتصوني شرفك وتحافظي على جواهرك

فقال الرئيس للحاجب : — اذا عادت المتهمة الى الكلام قبل ان تسأل قيدها بالسلاسل وسد فمها

ثم خاطب المرأة قائلاً : — والان هل تعرفين المرأة الجالسة هنا (مشيراً الى الكونتة)

— نعم أعرفها ولا اعرف اسمها وانما اعلم انها تقيم في قصر فخم وانها ذات ثروة طائلة ولديها كل ما تشتهي

— وكيف توصلت الى معرفتها

— كنت ذات يوم سائرة في (باليه رويال) فجاءني رجل طويل القامة كان قد راقبني مراراً وخاطبني بلطف ثم سألني ان اسمح له ان يزورني فأجبته الى ما يريد اذا هو اخذني الى اقرب مطعم وسد جوعي فلبي طلبي وتغدينا معاً ثم افترقنا على موعد الى الغد وفي الغد بعد العشاء اوصلني الى منزلي وهناك اخبرني انه من ذوي المكانة والنفوذ وله اصدقاء في البلاط وانه صديق خاص للملك والملكة . وانه يأتيني باصدقاء عظماء وانه روى امري لسيدة ممتازة وانها ستزورني . ثم عاد في الغد ومعه سيدة حيتني بلطف وتودد واظهرت دهشتها لما وقع بصرها عليّ

— ومن هي تلك السيدة

— هي الجالسة على الكرسي امامكم . وزارتني مراراً واخبرتني عن الملكة ومعيشتها الهنيئة في البلاط ووعدت ان تأخذني الى البلاط وتجعلني سيدة عظيمة اذا انا فعلت ما تريده مني . فوعدتها بذلك وان اكون طوع اشارتها اذا هي ارسلتني الى البلاط لاخاطب الملك والملكة وانما أردت الوصول اليهما لان الملك يستطيع ان يرقي رتبة زوجي ولما كان مشهوراً ان الملك لا يخالف للملكة أمراً أردت ان استميلها اولاً الي

— وهل شرحت كل هذا لهذه السيدة ؟

— نعم . فوعدتني خيراً اذا انا فعلت كل شيء تأمرني به باسم الملكة . ثم قالت لي ان الملكة امرتها ان تنتقي شخصاً موافقاً

ليلعب دوراً في رواية تهيئها جلالتها سراً وان اختيارها وقع علي وان لا اخبر احداً من الناس بل اكتم ذلك حتى عن جورج متى عاد من بروسل واذ ذاك تكون نصيرتي في المستقبل فضلاً عن انها تعطيني ١٥ الف فرنك وقد اكدت لي الكونتة ان كل ذلك يجري بامر الملكة وان المال من جلالتها فاطمأن خاطري لان الملكة لا تأمر بعمل ما لا يجب عمله وقالت الكونتة ان الذي تريده مني هو ان انوب عن امرأة اخرى وان ادع عاشقاً يتوهم انه مع معشوقته فرضيت هذا الدور السهل

— اما خطر لك ان تعرفي اسم السيدة التي تمثلين دورها

— اردت ذلك ولكن الكونتة منعتني عن كل سؤال وان لا ابحث عن شيء او اخسر نصف المبلغ المقرر فضلاً عن انهم اذا لاحظوا انني اعرف شيئاً أرسلوني الى سجن الباستيل فلم اهتم بشيء بعد ذلك واكتفيت بدرس دوري والاجادة في تمثيله

— اذاً لقد اعطوك درساً

— نعم فان الكونتة والرجل الذي جاء بها زاراني مراراً وعلماني كيف امشي وكيف ارفع رأسي وكيف احنيه وابسط يدي للتقبيل . وبعد ان فرغا من تعليمي كل هذا زاراني ذات يوم واركباني عربة فخمة الى منزل الكونتة فتناولت العشاء معهما وسرنا الى فرسايل فمشيا معي في الحديقة حتى اذا وصلنا الى قرب الكشك وقفا وقالا لي « هنا تمثلين دورك الصغير غداً وهي البقعة التي اختارتها الملكة وكل ما يجري يكون بامر جلالتها الخاص »

فعدت الى باريس معهما وابقياني تلك الليلة في منزلهما الجميل

وفي الغد اخذاني في عربة الى فرسايل وللكونتة منزل هناك فتولت الكونتة بنفسها العناية بملابسي كأنها وصيفتي

— وما نوع ملابسك يومئذ

— مثل الذي انا فيه الآن . انما لما فرغنا وقد اقبل الليل غطتني الكونتة برداء ابيض وسترت راسي بقبعة واركبتني عربة فسرنا الى الحديقة فاعطتني رسالة وقالت « اعطي هذه الرسالة للرجل الذي يقابلنا » ثم سرنا في تعاريج الحديقة

— وهل ذهبت مع الكونتة فقط او رافقكما غيرها

— رافقنا الرجل الذي كان سبب تعارفنا والذي أظنه زوج الكونتة . وبعد ان سرنا مسافة وقف وقال « الآن يجب أن تسيري وحدك ولكنني سأحضر في الوقت الموافق وأحدث حركة تستوجب انصراف العاشق » ثم ابتعد عنا فبقيت مع الكونتة فاعطتني وردة وقالت « عليك ان تعطي هذه الوردة مع الرسالة الى الشخص الذي ستقابلينه ولا تزيدي شيئاً على قولك « انت تفهم المراد من هذا » وقد سألتني الكونتة ان اكرر تلك العبارة ثم قالت « لا تزيدي عليها حرفاً واحداً . فان الملكة نفسها اختارت هذه الكلمات وستسمعك لانها تكون واقفة من ورائك وترى كل شيء » وبعد ان اوصلتني الى محل معين انسحبت وما لبث ان ظهر رجل فبرزت له من مخبئي فبعد ان حياني باحترام عظيم وانحناء كثير دفعت اليه الرسالة والوردة وأعدت على سمعه الكلمات التي تعلمتها من الكونتة فركع الرجل امامي وقبل يدي التي سلمته الوردة واذ ذاك سمعنا وقع أقدام واقبلت الكونتة مسرعة فقالت

« بالله عجلي فانهم يراقبوننا . تعالي حالاً » وجرتني بسرعة فتركنا الحديقة وعدنا الى منزل الكونتة فتركاني وحدي وقالا انهما يذهبان الى تسلية العاشق على قصر المقابلة وقالت لي الكونتة ان الملكة رأت وسمعت كل شيء وكانت راضية وعدنا صباح الغد الى باريس فلما وصلنا الى منزل الكونتة نقدتني المبلغ المتفق عليه تماماً ولكنها اشترطت عليّ ان اذهب حالاً الى جورج عشيقي وان ابقى في غرفة صغيرة الى حين سفري وللحال كتبت الى جورج انني ذاهبة اليه وحالما جاءني الرد ركبت عربة فخمة خاصة الى بروسل ودفع زوجها الاجرة كاملة

— أليس عندك غير هذه الافادات ؟

— ليس لدي الا ما تعلمونه من ان البوليس قبض عليّ في بروسل بعد حادثة فرسايل باسبوعين وجاء بي الى باريس وانني توعدت بالانتحار اذا لم تسمحوا لجورج ان يزورني في سجني يومياً وان طفلي ولد في السجن منذ نصف سنة فاسمحوا لي ان اعود الى ولدي

فصرفها الرئيس وعاد الى سؤال الكونتة فبقيت على اصرارها فامر باستدعاء الشاهد الآخر فادخلوا رجلا فما رأته الكونتة حتى ذعرت وصاحت :

— راتو دي فيليت ؟ يا للعار وأنت ايضاً تخونني

فقال الرئيس : — أرأيت عدل الله ؟ فان ضميرك يضطرك الى الاعتراف بذنبك

— كلا انني لا اعترف بذنبي وانما اضطربت لما رأيت هذا

الرجل الذي أنقذته من الجوع وشملته بالخير قد جاء به خصومي ليشهد ضدي ولكنني مستعدة لسماع اكاذيبه

ولما سئل الشاهد الاسئلة العادية اجاب انه يدعى راتو دي فيليت وانه كان سكرتير الكونتة ووكيلها فلما قبض البوليس على الكونتة وزوجها اركن الى الفرار فاقام في جنيف ثم حاول الفرار الى انجلترا فقبض عليه وانه انما حاول الفرار حتى لا يدخل في قضيتها

فقال القاضي : — وما سبب خوفك

— خفت لانني ارتكبت خطأ عظيماً واستسلمت لحيلة الكونتة ووعودها . فقد كنت فقيراً لا شأن لي وأحببت ان اكون شيئاً مذكوراً فوعدتني الكونتة خيراً وانها تحمل الكردينال على رفع منزلتي وانها تقدمني الى البلاط وبواسطتها اصير غنياً عظيماً فوثقت بها وصرت اطوع لها من بنانها

— وماذا فعلت في خدمتها ؟

— كتبت التحارير الموجهة الى الكردينال وكانت هي تلقي نصها عليّ وانا اكتبها بمثل خط الملكة

— وكيف عرفت خط الملكة ؟

— اعطتني الكونتة كتاباً طبعت فيه صورة رسالة بخط جلالتها فنقلت الحروف حتى احسنت تزويرها ثم كتبت الرسائل

— وهل تعلم شيئاً عن الكمبيالات التي أعطيت الى الجوهري بوهمر ؟

— نعم فانني كتبتها بيدي عملا باشارة الكونتة وذيلتها بالامضاء

— ومن اين لك صورة الامضاء ؟

ـــ من التحرير المطبوع

ـــ وهل كان في ذلك التحرير امضاء الملكة الذي قلدته انت ؟

ـــ لا . وانما كان فيه اسم « ماري انتوانيت » فظنت الكونتة ان هذا التوقيع هو توقيع جلالتها في رسائلها الخاصة (والتحرير المطبوع منقول عن تحرير ارسلته الملكة الى والدتها) ولا بد من صيغة رسمية في الكتابات الرسمية و بعد مناقشة طويلة تقرر ان نجعل التوقيع « ماري انتوانيت من فرنسا »

فصاحت الكونتة : انه كاذب

فقال الشاهد : انني اؤيد اقوالي فاذا سمحتم لي بادوات الكتابة اكتب امامكم ذلك التوقيع تماماً

وفعلا كتب التوقيع ودفعه الى الرئيس فبعد ان اطلع عليه جميع القضاة وقف الرئيس وقال :

ـــ اعتقد ان الكتابة صحيحة مطابقة للتحارير المزورة وقد اثبت الشاهد انه كاتب تلك الرسائل وانه فريسة الكونتة المحتالة فارجو ان يقف القضاة الذين يرون رأيي

فوقفوا جميعاً . وصاحت الكونتة واغمي عليها فقال الرئيس وقد رفع القبعة عن رأسه :

ـــ اعلن ختام التحقيق . فلتنقل المتهمة والشهود وليخرج الجمهور . اننا ننتقل الى غرفة المشورة والحكم يصدر غداً

الكتاب الثاني

الفصل السابع

نذير الشؤم

في مساء ٣١ اوغسطس سنة ١٧٨٦ انتظر اهالي باريس صدور الحكم في قضية الكردينال وتجمهروا حول المحكمة ينتظرون و يصيحون وامثال (مارات) من خطباء الفتنة يثيرون عواطف العامة ضد الملكة ومع الكردينال و بين هذه الجماهير شاب قوي زاحم القوم بعنف حتى وقف عند باب المحكمة ينتظر . و بعد قليل فتح الباب وخرج رجل من الحجاب فتجمعوا حوله يسألونه عن الحكم فاجابهم :

— لا اعلم ولكن الضابط يأتي قريباً . اما انا فاسمحوا لي ان اذهب سريعاً الى منزلي فقد انهكني التعب واضناني الجوع

وساعده الشاب الذي اشرنا اليه فقال : — ألا تبصرون حالته ايها الناس . دعوه يذهب وهات يدك ايها الرجل وتوكأ علي

وفعلا تناول ذراع الرجل وافتتح له طريقاً بين الجماهير وانصرف الناس الى الاهتمام بمراقبة باب المحكمة فلما ابتعدا قال الشاب :

— وهل صدر الحكم ؟

— نعم يا مسيو طولان فان المستشار اعطاني الورقة التي عليها صورة الحكم بينما كنت اقدم له كاس ماء

ـ فاخذ طولان الورقة وترك الرجل وانصرف في طريق آخر الى ان لقي فتىً يحرس جواده منذ ثماني ساعات فشكره وأجزل له العطاء وصرفه بعد ان اوصاه ان يبلغ سلامه الى خطيبته ثم ركب جواده واسرع قاصداً فرسايل حيث كانت الملكة تنتظر خبر الحكم بفارغ الصبر فلما وصل طولان استقبلته اولاً مدام كمبان وعلمت منه انه قطع مسافة ١٨ ميلاً في ساعة. فقالت له : ساخبر الملكة انني علمت صورة الحكم منك . فقال : ارجو أن لا تفعلي فربما كان فيه ما يسوءها سماعه ولا اريد ان اكون نذيراً بالشر الى جلالتها

— اذاً أنت لم تعلم ما في الورقة التي اتيت بها ؟

— لا يا سيدتي لا اعلم فان والد خطيبتي وهو أحد المستشارين ارسلها الي فلم اجرأ على مطالعتها لئلا يكون فيها ما يكدر جلالتها وكان كل همي ان اعجل في نقلها اليها . خذي الورقة يا سيدتي الى جلالتها واسأل الله ان لا يكون فيها ما يزعج خاطرها . ثم اسمحي لي ان اعود الى باريس فان خطيبتي تنتظرني فضلا عن انهم يخشون حدوث اضطراب هناك فيجب ان اذهب لاصون عائلتي

— اذهب يا صديقي ولك شكري القلبي على اخلاصك وتأكد انني سأبلغ ذلك الى الملكة فاذهب بالسلامة

واذ ذاك ظهرت ماري انتوانيت من وراء الستار باسمة وقالت:

ــ لا . لا . لا تذهب بل ابق لتقبل من ملكتك نفسها شكر قلبها لاخلاصك وغيرتك في سبيل مصلحتها هذا اليوم

فصاح طولان مذعوراً : ــ الملكة ؟ وركع عند قدميها بوقار واعجاب أولجبا تأثرها فقالت :

ــ لست اشكرك فقط لانك جئتني بخبر عظيم الاهمية بل لانك أقنعتني أيضاً ان ملكة فرنسا لا يزال لها اصدقاء امناء فانا اشكرك يا مسيو طولان

فعلم انها تصرفه ونهض حتى اذا وصل الى الباب عاد فركع ثانية و رفع رأسه وقال بصوت جهو ري :

ــ اشكرك يا إلهي من اجل نعمة الابتهاج التي أجزلتها لي هذه الساعة . ومن هذه الدقيقة اكرس نفسي لخدمة ملكتي . واسفك من اجلها دمي واقسم بالله على صحة ما اقول

ولما انصرف الشاب قرأت مدام كمبان الورقة واذا فيها ما يأتي:

اولاً : اعلنت المحكمة ان الرسائل والتواقيع مزورة وليست خط يد الملكة

ثانياً : حكم على الكونت لاموت بالاشغال الشاقة مؤبداً

ثالثاً : حكم على المراة لاموت ان تجلد ويرسم على كتفيها حرف () وان تسجن مؤبداً

رابعاً : حكم على راتور دي فيليت المزور بالنفي من فرنسا

خامساً : حكم ببراءة الآنسة اوليفا واطلاق سراحها

سادساً : حكم ببراءة الكردينال من كل تهمة وابيح له نشر براءته

فوقفت الملكة مضطربة وقالت : هـذا ما كنت اخافه فقد ذهبت الملكة فريسة للدسائس انهم برأوا الرجل الذي أهان الملكة فاشفقي عليَّ يا كمبان . لا. بل انا اشفق على فرنسا لانه اذا كنا لا نضمن عدل القضاة في امر يسوء سمعتي كيف نضمنه متى حوكم الانسان على امر يتعلق بشرفه وسعادته (١)

الفصل الثامن

قبل الزواج

غصت الدار بالمدعوين الى حفلة زفاف الآنسة مرغريت كريمة المستشار بوجو الى المسيو طولان ولبست الفتاة ثوب العرس وتهيأت لاقتبال بركة الاكليل واذا بالمسيو طولان قد اقبل وسأل والدتها ان تتركه مع عروسه قليلاً فلما انفردا قال طولان :

— نحن الآن وحدنا وقد اوشكنا ان يعقد لنا فلا ارى بدأً من الصراحة فلا تبقى اسرار بيننا . فاعلمي ايتها العزيزة انني احبك حباً جماً ومع ذلك فانني احب امرأة اخرى

— ومن هي ؟

— الملكة ماري انتوانيت

فسكن روع الفتاة لانها هي ايضاً تحب الملكة ثم روى لها طولان السبب الذي من اجله احب الملكة هذا الحب قال :

— كان ابي ضابطاً في الجيش الفرنساوي وله فعال جليلة فانعم

(١) كلمات الملكة . راجع (مذكرات مدام دي كامبان مجلد ٢ ص ٣).

عليه بوسام القديس لويس ولكن بعد ان قطعوا ذراعه وفصلوه عن الخدمة امسى فقيراً لا يقوى على العناية بوالدتي وبي فاحسن ظنه بالملك وبعد وفاة والدتي اخذني الى باريس ليرفع امره الى الملك وقد مشينا كل الطريق الى باريس وكان احيانا يحملني على ظهره متى انهكني التعب الى ان بلغنا فرسايل فذهبنا الى البلاط وابي يحمل عريضته وكنا نقف هنالك كل النهار فلا تسنح لنا فرصة ولا نحصل على جواب لأن امثالنا كثار العدد الى أن حضر الملك ذات يوم وتناول عريضة ابي بابتسامة فكنا نتردد على البلاط ١٤ يوماً ننتظر الرد فلا نحصل عليه واخيراً عيل صبر ابي فقرر ان يذهب لآخر مرة فان لم يحصل على جواب لعريضته يبيع وسامه ليعولني واياه وفيما نحن ننتظر دخل الملك والملكة على جمهور المنتظرين واعلن الحاجب اسماء الذين اسعدهم الحظ بالحصول على جواب من جلالته فلم نجد اسم ابي بين الاسماء . وكانت الملكة الشابة واقفة بجانب الملك بجمالها الساحر ولطفها العجيب ونظرت الينا باهتمام ثم دنت منا وخاطبت ابي قائلة :

— ايها الضابط العزيز هل قدمت عريضة للملك

— نعم يا مولاتي وبقيت انتظر الرد ١٤ يوماً

— ولم تحصل على الرد ? فقد رأيتك مراراً هنا مع الغلام ولا تزال تؤمل ?

— نعم ياسيدتي لا ازال اؤمل . لأن على جواب جلالته يقف موتي او حياتي

— اني اشفق عليك فان ١٤ يوماً مدة طويلة . اما وجدت وسيطاً يدنيك و يوصل شكواك ؟

— لا وسيط لي يا مولاتي الا هذا الساعد المقطوع

— اذاً فاسمح لي أن اكون وسيطاً لك لدى الملك . هات اسمك وعنوانك وارجع غداً فانني آتيك بالجواب بنفسي

فلما عدنا في اليوم التالي اقبلت الملكة وفي يدها رسالة مختومة وقالت لأبي : — خذ هذه الرسالة وانه يسر الملك أن يحسن جزاء واحد من خيرة ضباطه باسم فرنسا فقد عين لك معاشاً سنوياً قدره ثلاثمائة بنتو واني لأرجو لك ولولدك حياة سعيدة . فاذهب الى الخزينة انهم يصرفون لك الربع الأول من معاشك

ولما رأت جلالتها ان السرور تغلب على ابي امرت ان يعتنى به فنقلونا الى فندقنا في احدى عربات البلاط . ومن ذلك اليوم صرت عبداً لها مديناً لجلالتها بكل شيء وكنت كلما عدت الى منزلنا بعد ذلك اراه يقرأ المنشورات التي اذاعوها ضد الملكة فيقول : — انها يا ولدي نعجة طاهرة بين ذئاب فاذا قدرت يوما ما ان تنقذها من مخالبهم فافعل. فاقسمت ان اكون خادماً اميناً لها وهو قسم كنت اكرره كل يوم ان اكون نفساً وجسداً فدى لها . وقد ازف الوقت لخدمتها ايتها العزيزة مرغريت فان خصومها يشددون عليها النكير و يثيرون الأمة ضدها فان الكونت دي بروفانس شقيق الملك ناقم عليها لعناية الملك بعشيرتها دون سواها والكونت دارتوا الذي كان صديقها الوحيد جاهر بعدائه لها لأنها صانت مصلحة الأمة فنسبوا اليها كل شر حتى نفر الشعب واصبح يزري بها في

الشوارع وفى الاوبرا . اما انا فقد نجحت واصبحت مستشاراً ولا رغبة لي في هذا المنصب الا لأخدم الملكة فانا اتظاهر انني من حزب الثائرين لأتمكن من خدمتها . فانا احبك يامرغريت ولكنني لا اتاخر متى اقتضى الامر ان ابذل حبي وسعادتي في سبيل خدمتها . فهل تقبليني زوجك على علاتي هذه ؟

— ايها الشهم العزيز انني بعد ما سمعته ازداد حبي لك . فياجندي الملكة اجعلني رفيقة لك في اخلاصك

فشكر لها طولان موافقتها وسار بها الى حيث عقد زواجه بعد ان تفاهما ثم انتقلا الى المأدبة التي اقامها لهما المستشار بوجو في افخم مطاعم فرسايل اجابة لالحاح طولان فقال المستشار :

— ألا تفيدني يا ولدي العزيز لماذا انت مصر على ان يكون زواجك في كنيسة القديس لويس دون سواها وفي فرسايل وليس في باريس ؟

— ذلك لانني أردت ان يعقد زواجي في هذه الناحية حيث تجتمع الامة بعد ايام في الجمعية العمومية للدفاع عن حقها تجاه سلطة الملكية وسأكون مديناً الى فرسايل من الآن بحريتي فقد شرفني اهلها واختاروني نائباً عنهم في مجلس العموم . ثم أردت ان يعقد لي في كنيسة القديس لويس لانني أحب الملك لويس فهو صديق الشعب ويريد أسعادهم اذا سمحت له الملكة النمساوية .

وانما تظاهر طولان ببغضه للملكة لان عمه هذا كان من اعظم خصومها فاراد ان يخدعه وقال المستشار :

— صدقت ايها العزيز ان المرأة النمساوية لا تريد خيراً للشعب . فالويل للملكة لانها سبب جميع مصائبنا

الفصل التاسع

افتتاح الجمعية العمومية

تقرر افتتاح الجمعية العمومية في ٥ مايو سنة ١٧٨٩ وكان المراد بنوع خاص الحط من كرامة ممثلي العامة فاعدوا لهذه الحفلة قاعة كبرى في قصر فرسايل . فلما وصل نواب الشعب وجدوا لمزيد دهشتهم انهم لم يسمح لهم بالدخول الى القاعة من الباب الذي يستعمله نواب الاعيان والاكليروس بل عينوا لدخولهم ممراً ضيقاً مظلماً فتجمروا هناك ولبثوا ينتظرون نحو ساعتين ثم ابيح لهم الدخول الى القاعة وقد نصب العرش في صدرها وبجانبه كرسي للملكة ومجالس للاميرات وامراء العائلة المالكة ومن بعدها مقعد خاص بالوزراء والى يمين العرش مجالس الاكليروس والى يساره مجالس الاعيان وتجاه العرش ستماية مجلس لنواب الامة و بدأ المركيز دي ليريزه يجلس هؤلاء النواب في مجالسهم بمقتضى اهمية البلدان التي ينوبون عنها . فلما وصل الدور الى دوق دورليان رآه جمهور المتفرجين وقد تنحى اكراماً لاحد الكهنة فهتفوا استحساناً لعمله وجلس سائر النواب الى أن اقبل الكونت ميرابو خطيب فرنسا ولسانها الفصيح فصفق الجمهور اكراماً لرجل تنازل عن مكانته العليا بين الاعيان لينوب عن الشعب وما لبث الملك ان اقبل فصفق

الجميع سروراً . وباشارة من الكونت ميرابو وقف نواب الشعب ولكنهم خلافاً للعادة المألوفة لم ينحنوا . الا ان شاباً منهم انحنى لما دخلت الملكة واذا بجاره قد شده بيد قوية واوقفه قائلا

— يليق بنائب الشعب ان يقف منتصباً امام العرش

فاجاب طولان : — صدقت يا كونت ميرابو اما أنا فلم انحني للعرش بل اكرمت الملكة الحسناء

وجلست الملكة وأجالت بصرها فرأت طولان بين نواب الشعب وهم خصومها فدهشت واستغربت واستاءت وقالت في نفسها بمثل هذا ينجز وعده و يبر بيمينه . ولكنها لم تتأثر كثيراً لما توهمته من خيانة طولان فقد خانها سواه حتى الفت الخيانة من أنصارها . وادرك طولان ما جال في خاطرها فاقسم أن يجيء يوم تندم على سوء ظنها به

و بعد قليل وقف الملك على عرشه ونزع قبعته ذات الريش وللحال نهضت الملكة لتصغي واقفة لخطاب الملك فانحنى لها جلالته وقال :

— أرجو منك أن تجلسي

فاجابت : — مولاي اسمح لي ان اقف . فانه لا يليق بالتابع ان يجلس متى كان الملك واقفاً

فسرى بين الجمهور ضحك استهزاء فاجفلت ماري أنتوانيت كأن أفعى لسعتها وحولت بصرها الى الجهة التي كان الضحك فيها واذا بالدوق فيليب دورليان لا تزال الابتسامة على ثغره

والقى الملك خطاب الافتتاح فلما انتهى قوبل بالتصفيق العام

فجلس على عرشه واعاد قبعته الى رأسه وللحال فعل فعله جميع الاعيان فلبسوا قبعاتهم واقتدى بهم الكونت ميرابو من نواب العامة واقتدى به رفاقه . الا ان النائب طولان ابى أن يلبس النواب قبعاتهم والملكة موجودة فصاح بصوت عال :

— انزعوا القبعات

فقابلته أصوات من ناحية اخرى :

— بل ابقوها على الرؤوس

فلما سمع الملك هـذه الصيحات نزع قبعته في الحال عن رأسه فاقتدى به العموم وكشفت الرؤوس قسراً وفاز طولان بمراده من المحافظة على احترام الملكة

ولما انتهت الحفلة انصرف الملك وتبعته الملكة فهتف أحد النواب بالدعاء للملك ولم يكن لهتافه صدى كما أنهم لم يهتفوا للملكة حتى اذا صار الجمهور في الساحة الخارجية صاح القوم يريدون ان يروا الملكة فبرقت اسرتها فرحاً لانها منذ سنة ١٧٨٦ وقت حادثة العقد ندر هتاف الناس لها وطلبهم مشاهدتها فلما تعاظم صراخهم بطلب مشاهدتها دخلت القاعة الكبرى وأشرفت عليهم من الشرفة الكبرى وحيتهم بابتسامتها المشهورة فقابلوها بالصمت ولم يهتف واحد منهم بالدعاء لها بل صاحت امرأة منهم بالدعاء لدوق اورليان صديق الشعب فاغمي عليها كدراً ونقلها الاعوان الى محل ترتاح فيه فلما انتبهت من اغمائها قالت لمدام كمبان :

— لقد قضي على سعادتي فقد ذقت اليوم مرارة الموت ولا سبيل الى الهناء بعد اليوم

الفصل العاشر

ميراث ولي العهد

عقدت الجمعية العمومية الوطنية جلساتها اليومية مدة شهر كامل وكان القتال السياسي شديداً بين الاحزاب وكان الحزب المعارض للملكة أقوى عزيمة واكثر عدداً بل لم يكن للملكة حزب حقيقي وانما كان هناك بعض أفراد من اصدقائها الامناء لم يفلحوا في رد غارات الخصوم الاشداء واتفق الجمهور على مجاهرة العداء « للمراة النمساوية » فلما اقترح ميرابو على الجمعية العمومية اعتبار شخص الملك مقدساً طلب طولان منه ان يكون شخص الملكة ايضاً مقدساً فأبوا المصادقة على اقتراحه وبقي الامر قاصراً على الملك . فقالت ماري انتوانيت لناظر البوليس وهو يعرض عليها الاوراق الخاصة بها :

— هم يريدون بذلك القضاء عليّ

— بل اظنهم يقولون ان الملكة لا شأن لها في السياسة

— كم كنت سعيدة لو ابتعدت عن السياسة ولكن اعدائي اضطروني الى التعرض لها والحقيقة ان سعادة ملكات فرنسا في ابتعادهن عن السياســة فقد سمعت بالأمس موسيقياً يقول « ان الملكة التي تقوم بواجباتها هي التي تلزم منزلهـا وتهتم بالخياطة والحياكة » فقلت في نفسي « انك يا هذا لا تدري احوالي وانني

استسلمت الى السياسة مضطرة وسوء حظي يسوقني الى التوغل فيها [١] »

وما لبث ناظر البوليس ان اطلعها على تقاريره فاطلعت على المطاعن الكثيرة الموجهة اليها و بينما هي تظهر استياءها دخلت عليها فتاة دوقة بولنياك وانبأتها ان الداء قد اشتد على ولي العهد وان الاطباء في ريب من سلامته فهرولت الى غرفة ولدها الاكبر حيث الاطباء والكهنة فاخذت تقبله وتبكي فقالت :

— هل انت متألم يا عزيزي

— انني لا اشعر بألم الا متى رأيتك تبكين [٢]

ثم اقبل الملك وبعد قليل مات الغلام بين ذراعي والدته و بينما الكاهن يرش المياه المقدسة نهضت الملكة وخاطبته قائلة :

— اريد يا ابي ان اهب الف فرنك لكل طفل يولد في هذا اليوم في فرسايل

وقال الملك :

— تعالي يا ماري فان جثة غلامنا اصبحت من الآن ملكا لمدفن اسلافنا في سان دانيس . لقد مات ولي العهد فليحي ولي العهد

ثم تحول جلالته الى دوقة بولنياك وقال :

— احضري ولي العهد الى مقصورة والدته

---

(١) كلمات الملكة بعينها . « مذكرات مدام دي كامبان مجلد ٢ صحيفة ٣٢ »

(٢) كلمات ولي العهد على سرير الموت (مذكرات ويبر) مجلد أول صحيفة ٢٠٩

و بعد قليل دخل نجلها الثاني يحمل ازهاراً فضمته الى صدرها بحنان عظيم وقالت :

— اسأل الله ان يحميك يا ولي عهد فرنسا

— انما انا ولدك لويس دوق نورماندي ولست ولي العهد

فقال الملك : — لقد شاء الله يا ولدي ان يفارقنا شقيقك فراقاً لا لقاء بعده وصرت انت ولي العهد

— اذا كان الامر كما تقول يا ابي فهل اخذ اخي معه كل شيء مما كان له

— لا . بل ترك كل شيء لك وستكون يوماً ما ملك فرنسا فانت وارث اخيك

— وما معنى انني الوارث

— معناه انك تحصل على جميع الغابه

— أهذا كل شيء اناله . انني لا اريد القابه وانما اريد ان احصل على شيء آخر مما تركه

فقالت الملكة : — اظن انني فهمت مراده . ثم همست باذن الوصيفة وهذه عادت بعد قليل تحمل كلباً صغيراً يدعى « موفلي » ففرح الفتى كثيراً لما علم ان الكلب صار له فرفعت الملكة بصرها الى السماء وقالت :

— يا لسذاجة الاطفال وطهارتهم . لماذا لا يلبثون كذلك كل حياتهم ؟ لماذا ندوس هـذه العواطف كلما تقدمنا في السن ؟ لقد نال مملكة عظيمة وهو مع ذلك يفرح بالكلب . حقاً ان الحب هو اعظم ميراث لأنه دائم لا يزول

الفصل الحادي عشر

الملك لويس السادس عشر

اقبل يوم ١٤ يوليو على باريس بحوادثه المخيفة واندلع لهيب الثورة . على انه لم يكن قد وصل الى فرسايل بل كان القصر في مساء ذلك اليوم ترفرف عليه السكينة والطمأنينة بعد ان عقد جلسات عديدة في مقصورة الملك فلم يقر القرار على شيء وانسحبت الملكة الى مقصورتها ونام الملك نوماً هادئاً بضع ساعات فقط ثم ايقظه الحاجب لان دوق لانكورجاء يريد مقابلة مولاه فاسرع الى مقابلته وسأله عن سبب مجيئه في تلك الساعة من الليل فانبأه الدوق بما صارت اليه باريس وان رؤساء الجيش لم يجرأوا على ارسال تقرير الى الملك والوزارة وان الاهالي تقلدوا السلاح واقتحموا سجن الباستيل فهدموه وسفكوا الدماء وطافوا الشوارع برأسي ديلوناي وفلاسال وان فريقاً من الجيش جاهر بالميل الى الشعب

— اذن هي فتنة

— بل هي ثورة يا مولاي

ثم ان الدوق اشار على الملك ان يضع حداً لهذه الحالة وذلك بان يذهب بنفسه الى الجمعية العمومية وأقنعه ان هذه الزيارة توقف تيار الثورة ثم حضر اخوة الملك والملكة وابلغهم رأي الدوق وانه موافق فعارضوه فاصر على رأيه وأمر الدوق ان يتقدمه ويعلن قدومه وامر اخوته ان يسيروا معه

وفي غضون ذلك كان الهياج شديداً في جلسة الجمعية العمومية والكونت ميرابو يثير الخواطر على الملك واذ ذاك وصل الرسول وأبلغ الجمعية بواسطة رئيسها ان الملك قادم اليهم واستولت الدهشة على الجميع لهذا الحادث الفجائي وصاح ميرابو :

— اذاً يجب أن نستقبل الملك بالسكوت ففي ساعة المصاب العام يكون الصمت خير درس للملوك (١)

فوافق الجميع على رأي ميرابو بالتصفيق العام ولكن قبل أن ينتهي التصفيق اقبل الملك مع أخويه فقط ولا حاشية ولا اتباع ورغماً عن جميع المساعي السابقة اثر دخوله على القوم تأثيراً عظيما فهتفوا بالدعاء له هتافاً رددت صداه القاعة فوقف جلالته مكشوف الرأس وخاطب الجمعية العمومية بدون اقل تكلف فقال انه وهو رأس الامة قد جاء لمقابلة نوابها معلناً اسفه لما حصل قاصداً أخذ رأيهم في اعادة الامن الى نصابه ثم تناول الاشاعات التي ذاعت عن خطر يحيط بسلامة النواب فنفاها وقال « بل أنا الذي وثقت بكم فساعدوني في هـذا الوقت العصيب على اعادة الامن وتعزيز السلام وقد امرت بصرف الجنود من باريس وفرسايل »

فقوبل خطابه بالاستحسان العام وبعد ان رفع رئيس اساقفة بريان شكر الجمعية تحول جلالته يريد الانصراف فوقف الجميع اكراماً ومشوا وراءه الى الشارع فعاد ماشيا الى القصر في هـذا الموكب النادر وكانت الملكة على الشرفة تنتظر ومعها ولي العهد فلما

---

(١) كلمات ميرابو بعينها « مذكرات الكونت دي ميرابو » مجلد ٢ صحيفة ٣٠١

رآها الملك رفع قبعته وحياها فلم يفعل النواب فعله فبكت الملكة وعادت الى مقصورتها وقد تأكدت حتمد القوم عليها

ولما امسى المساء هجر القصر الكونت دارتواز ودوق انجوليم وغيرهما من الامراء فركبوا عرباتهم وفروا ليلا من فرنسا وتبعهم في الغد الوزراء بعد ان استقالوا . على ان كل ذلك لم يكف لاسترضاء الامة بل اضطرت الملكة الى صرف اخص اصدقائها دوق ودوقة بولنياك فدعتهما اليها وأمرتهما بالفرار في تلك الليلة على انهما رفضا الفرار واصرا على البقاء في خدمتها فابلغتهما خوفها على حياتهما لان الشعب شديد النقمة عليهما وفيما هي تناقشهما دخل الملك فسالته ان يقنعهما بالفرار فقال :

— صدقت الملكة لا بد من ذهابكما فان سوء حظنا يضطرنا الى مفارقة احبائنا فانني منذ هنيهة ودعت اخي والآن اودعكما وآمركما بالذهاب . اشفقا علينا ولكن عجلا بالذهاب مع اولادكما واعوانكما وسنجتمع في احوال افضل بعد ان يزول الخطر . ومرة ثانية آمركما بالذهاب (١)

الفصل الثاني عشر

٥ اكتوبر سنة ١٧٨٩

اصبح الناس وقد تلفحت شمس باريس بالغيوم كانها تتردد في

---

(١) كلمات الملك بعينها . وهذا الموقف المحزن صحيح تاريخياً كما ورد في افادات (مونجوا) في كتابه « تاريخ ماري انتوانيت » وفي « مذكرت مدام كامبان » وفي المجلد الاول من مذكرات ويبر

البزوغ فراراً من مشاهدة الحوادث المنكرة التي تحدث يومئذ في باريس . واجتمع الحرس الوطني بسلاحه اذ شاع ان النوادي ستمثل دورها الثاني من رواية الثورة وجاهر مارات في ٤ اكتوبر ان الشعب ساكن يجب ايقاظه من سباته واول مادبروه انهم اصدروا الاوامر « ان لا تخبز الافران خبزاً لتصبح باريس فلا تجد قوتاً ويستيقظ الشعب فتعظم نقمته على الملكة » فلما كان صباح ٥ اكتوبر لم يجد الاهالي حاجتهم من الخبز فاستولى الذعر على النساء اولاً ونسج خطباء الثورة على منوال مارات زعيمهم فاذاعوا بين الشعب انهم انما يجوعون ولا يجدون طعاماً لان الملكة جعلت لنفسها ولانصارها المؤونة وصانتها بقوة الجيش في فرسايل . فثارت النساء وصحن : « هيوا بنا الى فرسايل فان الملكة قد احتكرت الحنطة لنفسها ولقومها ولديها المفاتيح » وللحال اجتمعت نساء باريس وخصوصاً نساء العامة يحملن ما تيسر من انواع السلاح والعصي وزحفن على فرسايل فاسرع الجنرال لافايت يريد صيانة الملك والملكة من هياج الشعب وفي الوقت نفسه ليصون الجمعية العمومية من اعتداء الجيش الذي بقي مخلصاً للملك . على ان النساء ومن رافقهن من الجنود والرجال كانوا قد سبقوا الجنرال لافايت الى فرسايل حيث كانت الملكة وحدها في تريانون لان الملك ومعيته ذهبوا الى الصيد في مودون وفيما هي تمشي في الحديقة منفردة سمعت جلبة ثم صوتا ينادي « اين الملكة » وبعد قليل اقبل المستشار طولان وانبأها انه قادم باشارة مدام كامبان فسأل جلالتها الانتقال الى فرسايل لانه كان في باريس وعلم بما فعله

زعماء الثورة وان اكثر من عشرة آلاف امراة يزحفن على فرسايل فاسرعت الملكة تريد الوصول الى اولادها حتى اذا صارت على مقربة من سور حديقة فرسايل اقبل الكونت دي سان برسيت وانبأها بقدوم النساء فشكرت طولان على حميته ثم وصلت الى فرسايل وقد ساد القلق والاضطراب فامرت وصيفاتها بالانزواء مع اولادها في مقاصيرهم وان لا يفتح الباب لاحد سواها ثم نابت عن الملك في غيابه فاصدرت الأوامر اللازمة لصيانة القصر فلما عاد الملك انبأته بما جرى وحرضته على المقاومة بما بقي لديه من الجنود فقال : — بل يجب ان نقف على شكواهم . ثم عقد مجلساً للمشورة فلم يقر القرار على شيء وكانت النساء قد وصلن الى فرسايل ومعهن جنود الحرس يجرون مدفعاً وسمعت أصوات التهديد والوعيد وهم يطلبون الدخول الى القصر ومالبث ان جاء البرنس دي لكسمبرج قائد الحرس فصاحت به الملكة غاضبة :

— هل جئت لتقول ان الشعب قد استولى على القصر

— لوكان الامر كما تقولين ما رأيتموني هنا . فان الغوغاء لا تصل الى القصر الا بعد ان تدوس جثتي

— الحمد لله ان في فرسايل رجالا امناء

وتحول البرنس الى الملك فقال :

— لقد اتيت يا مولاي للعمل باوامرك فان هؤلاء المجانين يزدادون تهوراً والالوف منهم يحاولون اغتصاب الابواب بل انهم اطلقوا بنادقهم وعلا على الحرس فالتمس من جلالتكم ان تبيحوا لي رد النسوة الثائرات بالقوة

— هذا رأي سخيف ايها القائد كيف تطلب مني ان اسمح بالهجوم على جماعة من النساء . لا ريب انك هازل أيها الامير [١]

وتحول الى كونت دي لامارك فسأله عما لديه فاجاب ان النساء يطلبن مقابلة جلالته وعرض شكواهن فقال :

— ساقابلهن . فقل لهن ان يخترن ستة منهن وجئني بهن الى مكتبي فسأذهب لمقابلتهن . ورغماً عن توسلات الملكة ذهب الملك فقابل الوفد النسائي فشرحن له شكواهن فقال :

— ثقوا انني غير مسؤول عن تعاسة الشعب وانني في مثل حاله من الشقاء . وساصدر أوامري الى رؤساء مخازن الغلال ان يوزعوا ما في الامكان توزيعه ولو صدعوا بأوامري دائماً ما جرى كل هذا . ولا ريب عندكم انني احب رعيتي فاذهبوا يا اولادي وقولوا لرفاقكم ان يكونوا اهلا لمحبة مليكهم وان يعودوا الى باريس [٢]

خرج الوفد شاكراً ولكن الجماهير لم تقابل جواب الملك بالرضى وصاحوا بالفاظ الاهانة للملكة واقتحموا القصر بعنف فجاء الجنرال لافايت ليدافع عن الملك والملكة وتولى حراسة القصر

الفصل الثالث عشر

ليلة الرعب

نامت الملكة متخوفة ولكنها لم تدرك حقيقة مركزها وان

---

(١) كلمات الملك بعينها . مذكرات « ويبر » مجلد اول صحيفة ٤٣٣

(٢) كلمات الملك . مذكرات دي بوشيسن مجلد اول صحيفة ٤٣

الامة ناقمة عليها وعلى الملكية واما وصيفاتها وفي مقدمتهن مدام كامبان فقد اتفقن على السهر لحراستها هي واولادها لأنهن سمعن اصوات الثائرين من نساء ورجال وجاء المسيو فاريكور فروى ان القوم يزداد عددهم وهياجهم وان الزعماء يثيرون عواطفهم بالخطب ويحرضونهم على اقتحام القصر وكسر الابواب وان عدداً كبيراً من الجنود انضموا الى الثائرين

وعند الساعة الرابعة صباحا استأنف القوم هجومهم فنازلهم فاريكور ولكنهم تغلبوا عليـه وجرحوه فاسرع الى مدام كامبان وهو جريح وقال :

— قد حان الوقت . فانقذوا الملكة انهم سيقتلونها [1]

فاسرعت مدام دي كامبان وأوصدت الباب واذ ذاك سمعت ضجة عظيمة وأصوات القوم ينادون :

— نريد الملكة . نريد أن ننزع قلبها

فدخلت كامبان الى مقصورة الملكة وايقظتها فقالت :

— هاتي ملابسي

— هذا مستحيل الآن فليس لدينا وقت . والقت عليها ثوبها ودفعتها الى الفرار من ناحية ايل دي بوف وهناك لقيت الملك . وفي تلك الساعة المخيفة قال :

— هاتوا الشوكولاته لأتناول فطوري

فقالت الملكة : — افي هذه الساعة يا سيدي

— نعم . لأنه متى قوي الجسد استطاع الاحتمال

---

(١) كلمات فاريكور . مذكرات مدام كامبان مجلد ٢ صحيفة ٧٧

فقال ولي العهد : ـ وانا اريد ان افطر

فقالت الملكة وقد وضعت الغلام في حجر ابيه

— مولاي . هل يعلم ملك فرنسا ولده ان يتناول طعام الفطور بينما الثورة على الابواب والعصاة يحاولون اقتحام القصر الملكي ؟ وانت يا مدام كامبان ساعديني على اتمام زينتي لأنني اريد ان استقبل الثورة

ولما فرغ الملك من الطعام قالت الملكة :

— والآن اظهر نفسك ملكا

— يصعب يا عزيزتي ان اظهر بمظهر الملوك طالما الشعب لا يريد ان يعتبرني ملكا . فما الذي افعله يا ترى

— مولاي . ارسل الى فنسان وما جاورها وادع جنودك واجمع حولك ما يمكن جمعه من الجيش وازحف بهم على باريس وحارب العاصمة الثائرة تدخلها ظافراً فاتحاً

اما الملك فتردد اولا ثم امتنع وبعد قليل حضر الجنرال لافايت وابلغ الملك ان لا سبيل الى تسكين الثائرين . وما لبث القوم ان كسروا الابواب ودخلوا ينادون :

— فليحيي الملك . نريد ان يذهب معنا الى باريس

فاشار الوزير نيكر بالذهاب الى باريس ووافقه الجنرال لافايت ورغماً من معارضة الملكة وتخوفها امر الملك الجنرال لافايت ان يبلغ الشعب انه والعائلة المالكة يذهبون إلى العاصمة . ثم لما رأى ان الجنرال لم يتحرك من مكانه قال له :

— ما بالك لا تذهب وتبلغ الشعب امري

— مولاي توجد احوال لا يفيد فيها الا القول الصريح .

فالشعب الثائر لا يسكن ولا يصدق الا اذا سمع صوت الله او صوت الملك نفسه

— اذاً انت تعني ان ابلغ الشعب عزمي بنفسي

— نعم يا مولاي

— سأعمل برأيك فهاتي يدك ايتها المملكة العزيزة واتبعونا ايها السادة لنشرف على الشعب من شرفة القصر

الكتاب الثالث

الفصل الرابع عشر

الى باريس

اسرع الملك والملكة وولدهما والوزراء والاعوان الى شرفة القصر وفتح الحاجب الباب العريض فانفرد الملك واشرف على الشعب الثائر . فكأن يد الله امتدت وسكن تأثرهم ولما راوا الملك هتفوا بالدعاء له فتقدم ورفع كلتا يديه وخاطبهم قائلا :

— سأثبت لشعبي العزيز ثقتي التامة واذهب اليوم مع الملكة واولادي الى باريس فنقيم فيها . فارجعوا يا اولادي الى العاصمة وسأتبعكم اليها بعد ساعات قليلة

وعاد من الشرفة بين هتافهم وحالما غاب عن ابصارهم ملأ وا الفضاء صياحاً :

— نريد ان نرى الملكة . الملكة . فارادت أن تشرف عليهم بين ولديها وحاول الملك منعها فابت الا ان تجيب الطلب وتلبي النداء فاشرفت على القوم ووقفت بين ولديها والملك من ورائهم . ولكن الشعب صاح :

— الملكة وحدها . لا نريد الاولاد ابعدوهم فانما نحن نريد الملكة وحدها

فعاد الجميع وظهرت ماري انتوانيت وحدها ووقفت امام الجماهير وقفة الملكة القوية وقفة ابنة القياصرة فاثر منظرها على القوم وتهيبوا موقفها الجليل وجرأتها التامة وسكتوا كأن على رؤوسهم الطير ثم هتفوا بالدعاء لها فقابلت هتافهم بابتسامة ورجعت الى القصر

وبعد الظهر بساعة واحدة ركبوا العربات الى باريس يحيط بهم الجمهور العظيم من رجال ونساء وقد حملوا معهم على اطراف الرماح رأس فارسكور ورأس ديتون وهما يشخبان دماً وكانا راية الشعب الدموية في دخولهم بالملك وعائلته الى باريس وظلوا على ما ذكرنا حتى وصلوا الى قرب حدائق التويلري والناس يتفرجون وفي مقدمتهم ضابط شاب من ضباط المدفعية فلما مر به الركب الثائر قال لرفيقه :

— يا الهي . كيف امكن حصول هذا الامر . أليس لدى الملك مدافع يفني بها هؤلاء الانذال (١)

فاجاب رفيقه باسما :

اذكر يا عزيزي قول شاعرنا كورنيل « ان الشعب يعطي الملك تاجه ويسترده متى شاء »

ما يأخذه الانسان يجب ان يحرص عليه اما انا فلو اخذت من الشعب تاجاً لا ارده اليهم . ولكن سر بنا فانه يغيظني ان ارى هؤلاء الانذال الذين تدعوهم انت شعباً

وسار مع رفيقه الى حدائق التويلري وكان هذا الشاب يدعى

---

(١) كلمات بونابرت بعينها . مذكرات بوشاسن مجلد اول صحيفة ٣٥

نابوليون بونابرت ورفيقه الممثل الذي اشتهر كثيراً بعد ذلك ويدعى « تالما »

الفصل الخامس عشر

الملكة ونزهتها

عادت العائلة المالكة الى باريس واقامت في قصر التويلري وفي الغد قابل الملكة وفد من قضاة شاتليه واظهروا استياءهم من حوادث الامس وسألوها عن اسماء الذين قاموا بتلك المظاهرة لمعاقبتهم . فاجابت الخطيب :

— لا يا سيدي انني لا اشي برعية الملك ولا اريد محاكمتهم فقد نسيت كل ما جرى كأنه لم يكن . اذهبوا ايها السادة ان قلبي لا يعرف الانتقام وقد غفرت لجميع الذين اساءوا الي (١)

ثم جاءت نساء الاعيان واعتذرن عما حصل وبعد قليل جاء الجنرال لافايت وسأل جلالتها تعيين اوقات نزهتها في حدائق التويلري فادركت من سؤاله هذا انه يريد تعيين من يصونها من اهانات الجمهور فاجابته بكلمات جارحة اوشكت ان تجعله من خصومها واذا بولي العهد قد خاطب الجنرال قائلا :

— ايها الجنرال انني اقدم لك التحية فقد اوصتني والدتي ان احب جميع الذين يحبوننا وقبل دخولك اخبرتني والدتي انك لست من خصومنا بل من اصدقائنا ولذلك اريد ان اصافحك

---

(١) كلمات الملكة بعينها « تاريخ ماري انتوانيت » بقلم جونكور صحيفة ١٩٦ — ١٩٧

فتناول القائد يد الغلام وقد تلاشى الغضب الذي بدأ ينمو في صدره من كلمات الملكة ثم ركع امام الفتى وقبل يده وقال :

— يا اميري الكريم لقد خاطبتني بالفاظ الملائكة واني اقسم لك وللجلالة والدتك انني لا انسى هذه الدقيقة بل اذكرها ما دمت حياً والقبلة التي رسمتها على يد ملكي في المستقبل هي عربون ويمين الاخلاص لمولاي الملك وجميع عائلته . وياولي العهد لقد جذبت اليوم الى العرش جندياً يسفك دمه لأجل بيتك الكريم

فقالت الملكة وقد تاثرت من كلمات لافايت :

— انهض ايها الجنرال . ان الله قد سمع يمينك هذه وانا اقبلها باسم المملكية الفرنساوية والملك زوجي وولدي وباسمي ايضاً وارجوك ان تلتمس لي عذرا اذا كنت قد جرحتك بالفاظي فقد اثرت علي مشاهد هذه الايام

ومع كل ذلك اصرت على النزهة مع ولدها وحدهما وبينما هما يتنزهان وصلا الى حيث اجتمعت جماهير العامة يتقدمهم سيمون الاسكاف فاعترض هـذا ولي العهد بغلظة فوبخته الملكة وعادت الى القصر واقسمت ان لا تعود الى النزهة وانقضى فصل الشتاء وكان فصلا محزناً للعائلة المالكة فانها حرمت من اصدقائها وفر اكثر الامراء وخصوم الملكة من فرنسا ولبثوا من بعيد يدسون الدسائس على المملكة ويثيرون الحرب الاوربية على فرنسا ويتهمون ماري انتوانيت بكل تهمة ويحرضون الامة عليها فرأت الامة ان تضحي الملكة على مذبح البوربون فدى لهم وكانت ماري انتوانيت تقول :

ـ انهم سيفتكون بي ولكنهم في الوقت نفسه يقضون على الملك والملكية ايضاً

ولما اعيتها الحيل في اثارة شجاعة الملك للاقدام على ما ينقذهم رأت ان تتولى الامر بنفسها فكانت تعقد المفاوضات يوميا مع الوزراء وتخاطب الدول الاجنبية وترسل الى شقيقها الامبراطور ليوبولد النمساوي وشقيقتها كارولين ملكة نابولي مراسلات بأرقام الشفرة فلا يفهم مراسلاتها سواها طالبة مساعدتها وسمحت الجمعية العمومية للعائلة المالكة ان تقضي فصل الصيف في مصيفها « سان كلو »

الفصل السادس عشر

الكونت ميرابو

ظهر الآن ان لا سبيل الى كبح جماح الثورة الا بواسطة زعماء الثائرين فذهب الكونت دي لامارك ذات يوم الى الملكة وقال لها :

ـ يجب ان نستميل الكونت ميرابو الينا . فهو الآن اقوى رجل في فرنسا ويستطيع دون سواه ان يجمع الامة حول العرش

ـ انني لن اغفر له ولا اسامحه فقد كان اول الساعين وراء ابعاد الامة عنا ولن ينحط الملك الى حد ان يتنازل الى العفو عنه

ـ ولكن اذكري يا مولاتي ان قد يكون مستقبل ولدك في يد هذا الرجل

ـ وما مرادك من هذا القول ؟ وما علاقة ميرابو بولي العهد .

انا لا انكر انه قوي الان ولكن اي سلطان له على المستقبل .
وبعد هذا فما الذي تريد مني ان افعل ؟

ــ يجب على جلالتك ان تقيدي الاسد وان تحولي ميرابو من العداء الى الولاء

ــــ يستحيل عليّ ان أميل الى الرجل الذي كان السبب في حوادث شهر اكتوبر فهو ابن خائن وزوج خائن وشريف خائن وافضل الموت على الاستعانة به . ألا تعلم أيها الكونت انه يشرف ملكته بعدائه واحتقاره لها ؟ أما كان هو الذي حمل الجمعية العمومية على تقرير تقديس شخص الملك دون شخص الملكة ؟ ولما سأله اصدقائي الاعتدال في خصومته لي قال « أنني اسمح لها ان تبقى حية » اما هو الملوم على حوادث اكتوبر ؟ اما هو القائل « لقد قضي على الملك والملكة وقد بلغ من بعض الشعب لها انه يعبث بجثتيها [١] » فهو يكرهنا و يبغضنا

ــــ لا يا سيدتي بل هو يحترم الملكة وهو مستعد ان يفديها بحياته اذا امرت بالعفو عنه وسمحت بمقابلته كنصير العرش والمدافع عنه .

فدهشت الملكة لهذه الاقوال وقالت :

ــــ هل انت تعني ميرابو خطيب الشعب ومذكي نيران الهياج في الجمعية العمومية ؟

ــ بل اريد ميرابو الذي كان امس عدو الملكية وسيكون

---

(١) كلمات الملكة بعينها . تاريخ جونكور من ماري انتوانيت ص ٢٠٥

اليوم نصيرها الاعظم اذا شاءت جلالتك وتنازلت بأن تلمظي الأمر باجراء ذلك

ـ هذا مستحيل

ـ انه لما راى جلالتك مراراً في هذه الايام ولاحظ عظمتك وانفتك وصبرك على الشدائد طرأ على افكاره انقلاب عظيم . وسكن ثائره شأن الأسد وقد حدقت به عين نفس طاهرة . وقد يفيدنا كثيراً فهو يكتب و يتكلم عن الملكة بحماس واخلاص و يتوق الى الركوع عند قدميك ليعترف بغلطه ويحصل على عفوك

ـ وهل يعلم الملك شيئاً من كل هذا ؟

ـ ما كنت لأجرأ على عرض ما عرضته على جلالتك لو لا ان الملك نفسه امرني بذلك . فقد تأكد جلالته ان الواجب يقتضي استمالة ميرابو وهو يرجو ان تكون الملكة من رأيه

ـ سافاوض جلالته في الأمر ولكن اعلم مقدماً انني لا ارضى بما تقول الا في حالة اليأس والاضطرار

واتضح للملكة بعد درس المسألة درساً دقيقاً ان الحالة تستوجب الرضى بمصالحة ميرابو فاوفدت اليه الكونت دي لامارك يبلغه ان جلالتها تبيح له مقابلتها ولكن كان لا بد لنجاح هذه المقابلة من ابقائها سراً عميقاً لا يذيع خبره . فلا يجب ان يدري باستمالة ميرابو احد لئلا تقل ثقة الشعب به فيقل نفوذه خصوصاً وهو يومئذ ولي الامر يتصرف كما يشاء في ميول الامة واهوائها

وكان ميرابو قد اشترط على صديقه دي لامارك بعض شروط لما حاول استمالته الى الملك والملكة . اولاً ان يتمكن من مقابلة

الملكة . وثانياً ان تسدد ديونه . وثالثاً ان يعين له راتب شهري قدره مائة ليرا فرنسوية

فلما دفعوا له راتب الشهر الاول قال لصديقه دي لامارك :

ـ انكم تدفعون لي اجراً ولا تشترون ذمتي مشترى . لقد انجزتم هذا الشرط وماذا يكون من الشرط الآخر ؟

ـ ألا تزال مصراً على مقابلة الملكة ؟

ـ نعم لا بد من مقابلتها . فاذا كنت احارب حروب الملكية وانتصر لها لا بد لي اولاً من اعتبارها وتكريمها . واذا كنت اسعى الى اعادة حياتها اليها يجب اولاً ان اتأكد انها قادرة على الحياة . وان اعلم بنفسي انني ادافع عن رجل قادر وشريف وحازم . والملك الحقيقي الآن هو ماري انتوانيت . ولا يوجد غير رجل واحد في دائرة لويس السادس عشر وهذا الرجل هو زوجته . فيجب ان احادثها لارى واسمع ما يثبت لي انها جديرة بما افعله من المخاطرة بشرفي واسمي وسمعتي من اجلها . فاذا كانت حقيقة المرأة القادرة التي اتوهمها نتفق معاً على انقاذ الملكية والعرش . وستعلم عن قريب ماذا تقدر ان تفعله ابنة ماريا تريزا وولي العهد بين ذراعيها وكيف تستطيع ان تؤثر في عواطف الشعب الفرنسوي كما فعلت والدتها فاثرت في عواطف الشعب المجري [١]

وفعلاً تم لميرابو ما اراد وقابل زعيم الثورة الاول زعيمة الملكية المحتضرة وكان اجتماعهما في حديقة سان كلو في ٣ يوليو سنة ١٧٩٠

---

(١) كلمات ميرابو . راجع تاريخ ماري انتوانيت وعائلتها بقلم دي لاسكور صحيفة ٤٧٨

ولم يدر باجتماعهما الا فريق من خاصة الاصدقاء

جلست ماري انتوانيت على العرش لتقابل ميرابو . وذلك العرش هو مجلس من مجالس الحديقة تحيط به الاشجار والازهار وكان ميرابو قد زايل باريس الى قصر قريبته الماركيزة اوجان فقضى ليلته هناك وفي الصباح رافقه ابن اخته المسيو دي سايلان فتمشيا في حديقة سان كلو فلما وصلا الى الباب الذي بقي مفتوحاً لهذه الغاية ودع ميرابو ابن اخته قائلاً :

ـ لا ادري سبباً لترددي وانني اسمع صوتاً ينادينى « ارجع يا ميرابو ولا تدخل هذا الباب لانه يؤدي بك الى القبر »

ـ اصغ لهذا النذير يا خالي العزيز فانني اشعر بمثله

ـ لعلهم دسوا لي دسيسة . فهؤلاء البوربون لا يتأخرون عن كل عمل لادراك مقاصدهم . ولعلهم دعوني الى هذا المكان ليوقعوا بي . ولكن انتظرني ايها الصديق هنا فاذا لم ارجع اليك بعد ساعتين فاذهب الى الجمعية العمومية وقل لهم ان ميرابو اجاب استغاثة الملكة وذهب الى سان كلو وهو سجين هناك

وافترقا فدخل ميرابو وسار حتى لقي الكونت دي لامارك عند منعطف الطريق في الحديقة فقال له هذا بلهجة من يلوم :

ـ لقد سبقتك الملكة وهي تنتظرك

اما ميرابو فانه هز كتفيه ومضى في طريقه يتبعه دي لامارك حتى وصل الى غابة صغيرة فدخلها ورأى مجلساً خشبياً جلست عليه سيدة في ثوب ابيض بسيط وعلى ذراعها قبعة من القش الابيض وقد سترت شعرها بوشاح اسود . وكانت هي الملكة .

فوقف ميرابو ورمقها بنظرة من بعيد ثم تحول الى صديقه دي لامارك وقال همساً :

ـ لست ادري ايها الصديق سبباً لما اشعر به من الشعور الغريب . فانني لم اذرف دمعة واحدة منذ طردني ابي من منزله ولكنني الان وقد رأيت هذه المرأة في مجلسها اقدر ان ابكي بدموع غزيرة واشعر بعاطفة حنان لا اقدر على وصفها

وكانت الملكة قد ابصرته ايضاً فامتقع لونها وتحولت مرتجفة الى الملك وقد اختبأ على مقربة منها في الازهار الغضة فقالت :

ـ لقد اقبل الرجل المخيف . يارب انني اشعر برعب يستولي علي واذا نظرت الى هذا الرجل المكروه اكاد امرض من شدة احتقاري و بغضي له (١)

ـ تشجعي يا عزيزتي ماري فربما توقفت على هذه المقابلة سعادتنا ومستقبل أولادنا . انظري أنه يدنو . فقابليه بلطف . واما انا فانني أنسحب لانك ستكونين وحدك صاحبة الفضل في هذا اليوم وللملكية فيك افضل نائب لصيانتها

ـ ولكن أرجو أن تبقى قريباً مني لتسمع ندائي اذا اضطررت الى الاستغاثة

فتبسم الملك وقال : ـ لا تخافي يا ماري . وتأكدي أن الخطر عليه اشد منه عليك . فاذا ذاع خبر مجيئه لزيارتنا يعلق به لقب الخائن . سأذهب الآن لانه أقبل

وحالما انسحب الملك وصل ميرابو فانحنى كثيراً فنهضت الملكة ولم

---

(١) كلمات الملكة بعينها . مذكرات مدام دي كامبان المجلد الثاني

تكن ساعتئذ ملكة تقابل أحد رعيتها بل هي سيدة مضطربة تدنو من خطر عظم وتريد ان تتلافاه بابتسامة و رقة فقالت وهي لا تزل واقفة :

ـ اقترب ايها الكونت

فلما اقترب جلست و رفعت ببصرها اليه فرأت وجهاً لطيفاً وثغراً باسماً فقالت :

ـ لو وجدت نفسي امام خصم عادي يريد قتل الملكية بدون ان يدري الفائدة التي تعود على الشعب لكنت اقوم بعمل لا نفع منه . ولكن من يخاطب ميرابو تزول منه اسباب الحذر و يتخلل الأمل بالمعونة المدهشة من هذا العمل [1]

فتأثر ميرابو كثيراً وقال :

ـ سيدتي . ما حضرت اليوم حضور عدو بل انا خادمك الأمين الذي لا يتأخر عن تقديم حياته بسرور اذا كان فيها خدمة للملكة

ـ اذاً انت تعتقد ان بين الأمة والملكية مسألة موت او حياة

ـ بل انا واثق من ذلك ولكنني لا ازال اؤمل ان يكون الجواب لمصلحة الملكية بشرط استعمال الوسائل الصحيحة في الوقت اللائق

ـ وما هي الوسائل اللازمة في رأيك ايها الكونت ؟

فتبسم ميرابو ونظر بدهشة الى وجه الملكة الجميل الشريف وقال :

---

(١) كلمات الملكة بعينها . كتاب ماري انتوانيت وعائلتها تأليف لاسكور صحيفة ٤٨٤

ـ هل تتنازلين وتسمحين لي قبل الجواب ان القي على جلالة الملكة سؤالا آخر ؟

ـ سل ما تريد ايها الكونت

ـ اذا هذا سؤالي : « هل تنوي جلالتك اعادة النظام القديم وهل تعتقدين ان في الامكان ارجاع التاريخ الانساني السياسي الى الوراء ؟ »

فتنهدت وقالت :

ـ لقد اوردت جوابك في سؤالك . انه يستحيل اعادة البناء نفسه من خراباته بل يجب الاكتفاء باقامة بيت صغير من انقاض القصر الفخم فيقدر المرء ان يعيش فيه

ـ الحمد لله ياسيدتي . ان جواب جلالتك هذا هو اول شعاع من النور يخترق ظلمات العاصفة . ويمكن الآن ان نرحب بالنهار السعيد والعصر الجديد . وبعد سماعي جوابك الشريف ارفع بصري فرحاً فلا تخيفني الغيوم السوداء لانها ستزول اذا استعملنا الوسائل الصحيحة

ـ اعيد سؤالي الأول الآن . فما هي الوسائل الصحيحة في رأيك؟

ـ هي اولا الاعتراف بما هو خطأ . ثم الرغبة الصحيحة في اجراء ما يلزم وما هو ضروري

ـ اخبرني الآن ما هو الخطأ

فاخذ يشرح لجلالتها حالة فرنسا وعلاقات الاحزاب السياسية والبلاط والعرش ووصف باسهاب زعماء النوادى والأحزاب في الجمعية العمومية وبين الغاية المخيفة التي يرمي اليها حزب الشمال .

وتأدب فلم يذكر كلمة « جمهورية » ولكنه وصف بلطف سعي الحزب المذكور وراء الغاء الملكية والعرش واسقاط العائلة المالكة الى ان قال :

ــ ولكن ستكون النتيجة حسنة ونتمكن من محاربة القوى الخفية العاملة على تقويض عرشك وننزع من ايدى خصومك سلاحهم . وسأبذل في هذا السبيل جميع قواى وبلاغتي فاعارض الغوغاء والزعماء واعلن معارضتي لهم واخدم الملكية بامانة واخلاص واستعين بجميع الوسائل التي تؤثر في العقول

ــ وهل انت اذاً صديقنا الحقيقي قلباً وقالباً ؟ اتريد حقيقة ان تنتصر لنا وتساعدنا بمشورتك ومعونتك ؟

ــ لقد دافعت عن المبادىء الملكية لما كنت لا ارى الا ضعفها ولا اعرف نفس ابنة ماريا تريزا وآرائها ولم يكن يخطر لي ان يكون لها وسيط رفيع الشان نظير جلالتك . وانتصرت لحقوق العرش وانا غير موثوق بامانتي والوشايات محيطة بي اتهاماً لي بالخيانة . في ذلك الزمن خدمت الملكية وانا اعلم ان مليكي الشرعي لا يقابل خدمتي بلفظة انعطاف او اقل جزاء . فكم تكون خدمتي اعظم الآن والثقة تحركني والشكر يؤلف بين عاطفتي وواجباتي . ساكون وابقى كما كنت في كل زمان المدافع عن الملكية الخاضعة للقانون واكون رسولا للحرية المضمونة من الملكية (١)

ــ انني اثق بك ايها الكونت وباقوالك وانك ستخدمنا بامانة وغيرة وبمساعدتك تتحسن الأحوال . واعدك ان نتبع مشورتك

---

(١) كلمات ميرابو . مذكرات الكونت دى ميرابو مجلد ٣ صحيفة ٢٩٠

ونعمل برايك . فتحاور الملك بهذا الشـأن وتتفق معه على ما يلزم وتفيده عما يجب لسعادته و راحة الأمة

ـ سيدتي اسمحي لي ان ازيد ما يأتي على ما تقدم بيانه : ان اهم امر يجب اتمامه الا ن هو ان ينتقل البلاط الملكي من باريس

ـ اتريد ان نهرب ؟

ـ لا اريد الهرب بل الانسحاب . فان الشعب الهائج يهدد الملكية فيجب ابعاد العرش المهدد عن نظر الشعب قليلا ريثما نتمكن من تسكين الخواطر واعادة القوم الى صوابهم واخلاصهم . لذلك لا اقول يجب ان تهربوا بل اقول بترك باريس لأن باريس هي الآن بركان الثورة فلا بد من انسحاب البلاط حالا الى اقصى حدود فرنسا وهناك تجمعون حولكم جيشاً يقوده قائد امين مخلص وبهذا الجيش تزحفون على العاصمة المتمردة . واكون انا هناك لأمهد الطريق وافتح الأبواب

فنهضت الملكة متأثرة وقالت :

ـ شكراً لك ايها الكونت . انني بعد الآن لا ارتاب في المستقبل لان رايي يتفق مع اكبر سياسي عندنا . فانا واثقة ان لا بد للبلاط من مزايلة باريس وان ينسحب فراراً من اهانات جديدة وان لا يعود الى العاصمة الا عودة ظافر مشمول بعظمة السلطان وقوته ومع جيش قوي يستطيع كبح جماح العصاة واحياء الثقة في قلوب الانصار الأمناء . فاشرح كل هذا للملك واقنعه ان انتقالنا من باريس فضلا عن انه ينقذ التاج فهو ينقذ الأمة ايضا . ان اقوالك تقنع الملك وهو يعمل برأيك وشكراً

لك فنستفيد نحن والملكية ايضاً . والآن فاذهب ايها الكونت وابدأ عملك . وابذل نفوذك العظيم في سبيل ملكك وملكتك وتاكد ان شكرنا لك لا يفنى مدى الحياة . اذهب سالماً وثق انني اتبع خطواتك بنظراتي وانني سأسمع كل كلمة يلفظها ميرابو في الجمعية العمومية

فانحنى ميرابو كثيراً وقال :

— سيدتي ، لقد كان من عادات والدتك الجليلة متى سمحت لاحد رعاياها بمقابلتها ان لا تسمح بانصرافه قبل ان تبيح له التمتع بنعمة لثم يدها

فقالت وعلى ثغرها ابتسامة :

— صدقت . وفي هذا على الاقل اقدر ان اقتدي بوالدتي العظيمة

وبسطت يدها اليه فادرك قيمة هذا العطف من جلالتها وفتنه لطفها فما تمالك ان ركع امامها ولثم يدها البيضاء اللطيفة وقال بحماس :

— سيدتي ان هذه القبلة التي رسمتها بشفتي على يد جلالتك قد انقذت الملكية [١]

— هذا صحيح اذا كنت صادقاً في وعدك

وصرفته بابتسامة فعاد مسروراً الى ابن اخته الذي كان لايزال

---

(١) كلمات ميرابو بعينها . «مذكرات دي ميرابو» مجلد رابع ص ٢٠٨

ينتظره على باب الحديقة فوضع يده بحماس على كتف ابن اخته المسيو ساليان وقال بحدة :

— اي شيء فاتني حتى الآن ؟ انها عظيمة وشريفة وتعيسة ايضاً يا فيكتور

ثم صاح بصوت عال :

— ولكنني سأنقذها . نعم سأنقذها

الفصل السابع عشر

خيبة الامل

وكان ميرابو صادق النية يريد انجاز وعده . فاصبح من بعد تلك المقابلة نصيراً للملكية مدافعاً عنها فصيحاً في الانتصار للملكة نفسها . ولم يفعل كل ذلك لمجرد الربح المادي بل لان الملكة فتنته برقتها وسحرته بانكسارها

على انه امسى لا يقوى على رد تيار القوة بل لم يعد يتمكن من انقاذ نفسه اذ غمرته امواجها

وادرك ميرابو مركزه الحرج فلم يكتم قلقه وتخوفه . فقبل الاقتراع في الجمعية العمومية بيوم واحد خطب مدافعاً عن الملكية وامتيازات الملك واراد ان يكون قوله فصل الخطاب في الحرب والسلم — في ذلك اليوم جاهر صراحة انه نصير الملك فاحدثت مجاهرته شغبا واستياء في الجمعية . ومع ذلك خطب بشجاعة مدافعا

عن التاج وصاح باعلى صوته قائلاً « انا اعلم ان بين قاعة الجمعية والهلاك خطوة واحدة » . وفعلاً تنقل ميرابو خطوة اثر اخرى.
وكان (بتيون) صادقاً في قوله ان ميرابو اشد اعداء الجمهورية خطراً وصدق (مارات) في قوله يجب على ميرابو ان يستنزف كل دم الاشراف من جسمه او يموت . وقد قال هذا الرجل الشجاع « انني ادافع عن الملكية ضد كل اعتداء من اية الجهات جاءها » وعرف انصار الجمهورية ان في وسعه جمع ما تفرق من حطام الملكية فرأوا ان يدفن تحت انقاضها

وعلى اثر مقابلته للملكة ولفظ خطابه الشهير في حقوق الملك وامتيازاته بدأت صحته تعتل . فقال خصومه ان السبب في مرضه اسرافه وتهتكه وبرد اصابه من شرب كأس ماء بارد أثناء الخطابة في الجمعية العمومية وقال انصاره بل ان خصومه دسوا له السم في الكاس سعياً وراء التخلص من خصم عنيد

وكان ميرابو على هذا الرأي الاخير وأيد ظنه هذا ما كان يشعر به من الالم في امعائه والضعف في اعضائه فامسى الأسد الذي اراد ان يربض امام العرش لصيانته رجلا مريضاً ضعيفاً فقد صوته الجهوري وتلاشت قوته . وحاول مقاومة الداء فلم يفلح . وحدث ذات يوم وهو يخطب انتصاراً للملكة ان اغمي عليه فنقلوه الى منزله وهو لا يعي على شيء . وبعد ان اجهد طبيبه الخاص (كابانيس) نفسه تمكن ميرابو من فتح عينيه وعاد الى هداه ولكنه تيقن ان الموت على الابواب فقال :

« انني مشرف على الموت. واحمل في قلبي شعار جنازة الملكية.

وهؤلاء الزعماء الذين استولى عليهم الهوس يريدون نزع ذلك الشعار ولذلك يريدون ان يكسروا قلبي وقد فعلوا [١] »

وبعد ان قضى ميرابو ليلة ألم شديد استدعى الى سريره طبيبه كابانيس وصديقه الكونت دي لامارك وبسط اليهما كلتا يديه وقال:

— سأموت اليوم ومتى ادرك المرء هذه الحالة لم يبق الا ان يفعل امراً واحداً — وهو ان يتطيب ويرتدي اجمل ملابسه وان يحاط بالازهار فينام في تلك الحالة نومه الابدي . فاستدعيا خدمي واتباعي . ويجب ان اتزين والبس ثيابي واظهر في اجمل حالة ويجب ان تفتح النافذة ليدخل منها النسيم الدافىء ثم يؤتى بالازهار. اريد ان اموت في نور الشمس وبين الازهار [٢]

فصدعا باشارة هذا البطل العظيم الذي اراد ان يموت ميتة الابطال وان ينال في موته اعجاب الجمهور . فشهدت باريس جميعها هذا المشهد الاخير اذ كان لا همّ لاهاليها الا السؤال عنه وعن صحته واحدقوا بمنزله فغصت الشوارع المؤدية اليه بالجماهير اياماً ومنع سير العربات حتى لا تزعجه واقفلت التياترات وتعطلت جميع المتاجر بدون سابق اتفاق بين التجار ولكن اندفاعاً مع تيار العطف على الزعيم

وفي صباح اليوم الرابع باكراً قبل ان تتحرك باريس النائمة وقبل ان تفتح نوافذ المنازل وابوابها سرى نداء عام اثر في كل قلب واخترق كل منزل . فكان الناس يطوفون الشوارع وينادون سكانها :

— هاتوا الازهار . ميرابو يريدها . اكثروا منها . هاتوا الورود

---

(١) و (٢) كلمات ميرابو بعينها « مذكرات ميرابو » مجلد رابع ص٢٩٦

والبنفسج الى ميرابو . انه يريد ان يموت على فراش منها

على هـذا النداء العام استيقظت باريس صباح ٢ افريل سنة ١٧٩١ ففتحت الابواب وهرول الوف من الناس الى منزل ميرابو يحملون ما لديهم من الازهار في باقات وسلال واكاليل كأن باريس في صيفها الجميل . فامتلأ منزله بالازهار في القاعة والصالة وغرف النوم والاستقبال واستلقى ميرابو في القاعة الكبرى على ديوان كبير وقد زين نفسه ولبس ملابسه الرسمية كأنه في عيد ملكي ووضعت حوله اجمل الازهار وتدلت عليه من كل صوب . فودع الاصدقاء بابتسامة ومات

وكان الملك يستفهم بواسطة الرسل اربع مرات يومياً عن صحته. فلما نعاه اليه الكونت دي لامارك امتقع لونه وقال :

— ان النكبة مخيمة علينا . فالموت ايضاً يتحول الى جانب خصومنا

وتأثرت ماري انتوانيت كثيراً وقالت :

— لقد اراد ان ينقذنا ولذلك وجب ان يموت . لقد كان الحمل ثقيلا فرزح تحته . وسيخرب الهيكل وندفن تحت انقاضه اذا لم نعجل في انقاذ انفسنا . لقد كان من رأيه ان ننتقل من باريس فيجب ان نعمل برأيه فعسى ان يؤثر موته في الملك ويرضى بالسفر

الفصل الثامن عشر

الثورة في التياترو

عملا بمشورة ميرابو قبل موته فرّ الملك والملكة وولدهما ولي العهد من باريس سراً يقصدون (فارين) بعد ان تنكروا جيداً وهناك عرفهما بعض الاهالي فاذاعوا الخبر واسرعت فصيلة من الجند بقيادة الجنرال لافايت فحالت دون مواصلتهم الفرار وأعيدوا تحت الحفظ الى باريس في ٢٠ يونيو سنة ١٧٩١ واجبروا على الاقامة في قصر التويلري الذي تحول الى سجن للعائلة المالكة . وصدرت اوامر الجمعية العمومية بالتشديد المتناهي في حراستهم وصدر القرار الآتي « من هتف للملك يجلد . من اهانه يقتل » والقرار الآتي « قد فصل الملك موقتاً عن منصبه الملكي . و يعهد بحراسة الجميع الى حرس خاص برياسة قائد عموم الجيش الوطني و يكون مسؤولا عن سلامتهم وعدم فرارهم »

و بلغ من تشديدهم على الملكة نفسها انهم وضعوا الرقباء عليها ليل نهار فلم يسمح لهـا ان تبقى وحدها دقيقة واحدة بل انهم ابقوا باب غرفة نومها مفتوحاً ليراها الحرس وهي نائمة فيأمن فرارها . واخيرا توسلت اليهم الملكة ان يسمحوا لها باقفال باب غرفتها ساعة قيامها من النوم لتلبس ثيابها فتنازلوا واباحوا لها ذلك(١)

---

(١) تاريخ ماري انتوانيت . تأليف ادمون وجول دي جونكور . صحيفة ٢٦١

ثم ارادت ان تجرب اقصى جهدها في استمالة الشعب فلما بلغها انهم يمثلون رواية « السيست » في الاوبرا ارادت ان تذهب الى التمثيل فقد سبق في أيام السكينة والنفوذ انها حضرت تمثيل تلك الرواية فاقيمت لها مظاهرة اكرامية مشهورة انشدوا فيها نشيد الدعاء لها . فذهبت الى الاوبرا ولكن خصمها الالد (مارات) كان قد أعد دسيسته لها فنشر انصاره بين الحاضرين ولما ظهرت جلالتها وهتف بعضهم لها عارضهم فريق آخر ولما أراد المنشد ان ينشد نشيد الملكة عارضه الخصوم وحصل شقاق وجلبة فاضطرت الملكة الى الانصراف وقد علمت ان لا سبيل الى مقاومة الاحزاب الجمهورية

عادت الى القصر الذي صار سجناً وكان الملك اذا جاء ليزورها رافقه الرقباء ولبثوا معهما يسمعون كل كلمة . فدخلت مقصورة نومها وعلى الباب ضابط لحراستها فلم يتحرك من مجلسه فانفردت وراء الستار لتنزع ملابسها ثم ظهرت وقالت بصوت عال :

— انني أشعر بتعب واريد ان انام

فنهض الضابط وقال للحارسين الواقفين في الغرفة الداخلية :

— ان الملكة ستنام فلا لزوم للحراسة هنا . فما دامت الملكة نائمة يكفي لحراستها رجل واحد واؤكد لكم انني ساحرسها واراقبها بالشدة اللازمة

فانصرف الجنود وعاد الضابط ولكن ليس الى كرسيه بل دخل مقصورة نوم الملكة فاجفلت وتحولت الى الجرس تريد الاستغاثة فهمس قائلاً :

ـــ بالله لا تفعلي . انظري الى وجهي . انا طولان يا مولاتي خادمك الامين وهذا كتاب من مدام دى كامبان

فقرأت الكتاب وعلمت انه صديقها وانه احتال للوصول اليها ثم افهمها انها تقدر ان تجتمع بالملك ليلاً مدة حراسته وان تقابل اولادها وانه سيتولى الحراسة مرة في الاسبوع

الكتاب الرابع

الفصل التاسع عشر

٢٠ يونيو و١٠ اغسطس سنة ١٧٩٢

اشتد الخلاف بين الملك والجمعية العمومية وعارض الملك قراراتها بشجاعة . فمن ذلك قرارها ان تنفي من فرنسا جميع الكهنة وان تنشيء معسكراً على حدود الرين ونحشد فيه ٢٠ الفاً من الجند وان يعاقب بالاعدام من يقيم خارج فرنسا او يشترك في عمل عدائي ضدها

وفي ٢٠ يونيو سنة ١٧٩٢ رفض الملك الموافقة على ما تقدم فهاج الشعب بتحريض الزعماء واقتحموا القصر فملأوه من كل جانب ودخلوا على العائلة المالكة يصخبون وقدم احد العامة كاساً أخرجه من جيبه فملأه واوما الى الملك ان يشرب نخب الامة ففعل ثم رفع آخر الى الملكة بعض العصي وقد كتب عليها « الى ماري انتوانيت » وأراها آخر صورة الفيلوتين وآخر صورة مشنقة وقد كتب عليها « ارتعب خوفاً ايها الظالم فقد دنى أجلك » ورفع أحدهم الى وجهها قلب رجل يشخب دماً على طرف رمح وصاح « كذلك يكون حال قلوب الظالمين » ورمت امرأة فاجرة طرطوراً

احمر الى الملكة وامرتها أن تضعه على رأسها أو تقتلها فتحولت الملكة الى الجنرال دي و يتجنهوفن وسألته أن يضع الطرطور على رأسها ففعل مكرهاً ناقاً فهتف القوم فرحاً ثم طلبوا أن يوضع الطرطور على رأس ولي العهد وأخيراً أقبل محافظ باريس بالنجدة ففرق الشعب وأنقذ العائلة المالكة من اهانات أخرى

وعلى أثر ذلك اجتمع مائة من اعيان فرنسا وامرائها باسلحتهم وتألبوا حول الاسرة المالكة لحمايتها وقد اشتهروا في التاريخ باسم « رجال الخنجر » الا ان الشعب الثائر تغلب عليهم فاقبل النائب العام (رودرار) وقال للملك :

— يجب ان تنجو بالاسرة فلا سبيل الى المقاومة فان رجال المدفعية ابوا اطلاق النار على الشعب ولا امان لجلالتك الا في الجمعية العمومية ورجالها وحدهم يستطيعون انقاذ الاسرة الملكية . وعند الساعة السادسة صباحاً خرج الملك والملكة واولادها من قصر التويلري ومروا في سبيل ضيق بين الشعب الهائج واهينوا وشتموا كثيراً وكان القوم يصيحون « الى القتل ايها الظالم » وهجمت بعض النساء وايديهن ملطخة بالدماء يردن اختطاف ولي العهد فسبقهن احد الجنود وحمله فصاحت الملكة مذعورة فانحنى الجندي وقال لها :

— ألا تعرفينني ؟ لا تخافي

واذا به صديقها الامين طولان وقد تنكر بملابس جندي وطني ولبثوا في سيرهم حتى بلغوا المكان الذي تلتئم فيه الجمعية العمومية فدخلوا ولم يقف احد لاكرامهم فجلس الملك بجانب الرئيس والملكة

ووصيفاتها في كراسي الوزراء واذ ذاك صاح الخطيب بصوت غاضب :

— يجب ان يجلس ولي العهد مع الملك فانه خاص بالامة وأما المرأة النمسوية فلا حق لها بثقة الشعب . وطالت المناقشات الى الساعة الخامسة مساء فتحول الملك الى خادم وراءه وقال :

— انا جائع فجئني بطعام

وفيما الملك يأكل كانت الملكة تبكي وقد ابتلّ منديلها فطلبت غيره ممن حولها من معينها واذا بجميع مناديلهم ملطخة بدماء الذين قتلوا او جرحوا دفاعاً عنها وعند الساعة الثانية بعد نصف الليل انتهت الجلسة ونقلوا الاسرة الملكية الى الغرف الكائنة فوق مركز الجمعية العمومية وفي الصباح أعيدوا الى الجمعية وعقدت جلسة اخرى للنظر في اوفق محل لاقامة الاسرة وكانت زوجة سفير انجلترا قد ارسلت الى الملكة ملابس ولدها لفائدة ولي العهد وأعطتها مدام تورزيل ساعتها لانهم سرقوا ساعة الملكة ونقودها أثناء السير في الطريق فلما سمع الرجال الذين حولها خبر هذه السرقة أفرغوا بين يدي جلالتها ما في جيوبهم من المال فقالت لهم :

— أشكر لكم عواطفكم ايها السادة ولكنني ارجو أن تستعيدوا هذا المال فانكم اكثر احتياجاً اليه منا نحن لانني أرجو أن تكون حياتكم أطول من حياتنا [١]

وبينما هي منتقلة ذات يوم من الجمعية الى مقامها الجديد رأت أثناء مرورها في الحديقة قوماً ينظرون اليها بدون تحقير أو توجيه

---

(١) كلمات الملكة بعينها « تاريخ لويهسن » مجلد اول صفحة ٢٠٦

عبارات الاهانة اليهـا فشكرت لهم بابتسامة وحنت رأسها فقال لها أحدهم :

— لا تتعبي بهز رأسك بعناية ولباقة فانك تفقدينه بعد قليل

وبعد مناقشات طالت خمسة أيام قررت الجمعية العمومية وضع الاسرة الملكية في (التامبل) . ونقلوهم اليه في ١٨ اغسطس . ففي العربة الاولى ركب الملك والملكة واولادهما ومدام اليصابات والبرنسس لامبال ومدام تورزيل وابنتها وبتيون محافظ باريس والنائب العمومي وضابط وفي العربة الثانية اتباع الملك مع ضابطين وتولى الجند حراستهم فساروا بين الاهانات والتحقير

ونحو الساعة السابعة وصلوا الى سجنهم الجديد فنظرت ماري انتوانيت الى حذائها الاسود وقد تمزق وظهرت جراباتها البيضاء فقالت للبرنسس لامبال :

— انظري . من يصدق ان ملكة فرنسا لا تملك حذاء

الفصل العشرون

٢١ يناير

لبثت الاسرة الملكية في سجنها الجديد اياماً ثم جاءها مانويل خصم الملكة والنائب العمومي منذ ١٠ اوغسطس فابلغهم امر الجمعية الوطنية بابعاد جميع الذين رافقوهم عنهم . وهكذا أبعدوا عنهم الاصدقاء الامناء والخدم وابقوا خادم الملك دون سواه فكانت الملكة بعد ذلك مثل كل امرأة فقيرة لا خدم لديها ولا وصيفات .

وفي صباح ٣ سبتمبر ابلغوا الملك والملكة امراً جديداً خلاصته أن باريس ثائرة وانه لا يجوز لهما التنزه في الحديقة كالعادة لان ملوك اوربا أثاروا الحرب على فرنسا وقد زحف ملك بروسيا بجيشه حتى شالون وزحف امبراطور جرمانيا على الالزاس

ولما جلسا الى المائدة دخل عليهما فجأة بعض الموظفين وقال أحدهما وهو يهدد الملك بيده :

— ان الاعداء وصلوا الى فردون وقبل ان يفتكوا بنا تموتون انتم

ثم سمعا صوت هياج الشعب خارجاً واذا بالقوم قد رفعوا رمحاً الى النافذة وعليه رأس البرنسس لامبال فذعرت الملكة واشتد خوفها لمقتل صديقتها الصادقة وكانوا قد طلبوا من البرنسس أن تجاهر ببغضها للاسرة الملكية ولما أبت قتلوها وطافوا برأسها في الشوارع

وكانت الحكومة الوطنية قد عهدت الى سيمون الاسكاف بحراسة الملك والملكة والتضييق عليهما فكان يجرحهما بالتحقير والاهانات اليومية

وفي اواسط اكتوبر فرّقوا بين الملك والملكة فنقلوا الملك الى مكان آخر ولكنهم سمحوا للاسرة بالاجتماع في اوقات الطعام

وفي ديسمبر اتهم الملك انه خان الامة لانهم عثروا على اوراق تظهر أنه خاطب الملوك الاجانب واستغاث بهم فاستدعوه الى المحاكمة وأعلنوا انهم يبيحون له انتقاء الذين يدافعون عنه فجاءته تبرعات المحامين من كل مكان وأخصهم الشاعر الالماني فريدريك

شيلر الذي نشر دفاعه عن الملك [١] واخيراً اختار لويس للدفاع عنه اولاً وزيره السابق والفيلسوف العالم دي ماليرب والمحامي تورشي والمحامي الشاب الشهير ديسيج

وفي ٢٦ يناير سنة ١٧٩٣ حكم على الملك بالاعدام ولما سيق الى القتل حاول بعض انصاره انقاذه فلم يفلحوا وأخيراً قطعوا رأسه . وفي مساء أعدامه ذهب الجلاد سمسون الى الكاهن ودفع ثمن قداسات عن روح الملك واعتزل عمله ومات بعد نصف سنة وبقيت القداسات التي فرضها الجلاد تقام عن روح لويس الى الى سنة ١٨٤٠ [٢]

وفي الغد التمست أرملة الملك من اولياء الامور ان يرسلوا اليها ثياب الحداد ففعلوا

الفصل الحادي والعشرون

طولان

عاد طولان الى (التامبل) لحراسة الملكة وقد تظاهر بالحقد عليها حتى وثق به سيمون و زوجته وهما قد توليا رياسة الحرس بشدة وتضييق فحاول انقاذ ولي العهد وتوصل الى اعطاء الملكة ثياب فتى يتنكر بها ولي العهد تمهيداً لفراره مع والدته ومدام

---

(١) لا يزال دفاع الشاعر الالماني محفوظاً في اوراق فرنسا الرسمية . تاريخ بوشيسن مجلد اول صحيفة ٢٦٥

(٢) تاريخ لاسكور عن ماري انتوانيت واسرتها صحيفة ٦٤٨

اليصابات اذ أعد لهما ملابس الرجال ورسم خطة الفرار على انهم متى خرجوا من (التامبل) يذهبون الى منزل رفيقه في الرأي (لابتير) في شارع كوندري فيصلون الى نورمانديا ومنها يركبون البحر الى انجلترا على ان زوجة تيزون وشت بالصديقين فجبن لابتير وعدل عن انقاذ الملكة . أما طولان صديقها الأمين فانه ترك رفيقه ومشي ثابت الجأش الى الجلسة التي عقدتها في ذلك اليوم لجنة المحافظة على المدينة وبيدها الامر والنهي فدخل وخاطبهم بصوت عال معلناً براءته من تهمة الخيانة وانه لما بلغه سوء ظن القوم به نصح له بعضهم بالفرار فأبى لانه مخلص للامة . على أن خصوم الملكة أبوا ان يصدقوه فامروا بارساله الى السجن فاحتال على الحرس حتى اوصلوه الى منزل خطيبته وهناك فرّ من بين ايديهم وتنكر ولبث مختبئاً ذلك اليوم

وفي يوليو سنة ١٧٩٣ قررت لجنة الامن العام فصل ولي العهد عن والدته وتسليمه الى استاذ يربيه فانتزعوه من الملكة في مشهد محزن ودفعوه الى سيمون الاسكاف وزوجته

وكان الحاجب من حين الى آخر يرق لمصابها ويأتيها بأخبار ولدها وانه تعلم لعب الكرة . ثم علمت من عويله وبكائه وتهديدات سيمون له انهما يسيئان معاملته . بل كانت تسمعه ينشد مرغماً الاناشيد التي وضعت يومئذ طعناً عليها وتشويهاً لكرامتها

ولما نقلوها في ٢ اوغسطس الى السجن قالت :

— الحمد لله ما عدت اسمع ولدي ينشد تلك الاناشيد

الكتاب الخامس

الفصل الثاني والعشرون

اعدام ماري انتوانيت

في ١٦ اكتوبر سنة ١٧٩٣ قتلوا ماري انتوانيت بعد ان مضى على انتقالها الى السجن اربعة شهور ولبثت محاكمتها من ٦ الى ١٣ اكتوبر وكان الشعب لا يمل اهانتها اثناء المحاكمة فيطلب الناس من حين الى آخر ان تقف في مجلسها ليروها وسمعوها تقول مرة وقد امروها بالوقوف : « ألا يسرع الوقت الذي يكف هؤلاء الناس فيه عن تعذيبي [1] »

ولم يجسر احد أن يعطف عليها الا الجنود الذين يحرسونها . وحدث بينما كانوا يسيرون بها مساء ذات يوم من المحكمة الى السجن انها قالت : « لا اقدر ان ارى ولا اقوى على السير » [2] فاسرع جندي واخذ يدها فتوكأت عليه وصعدت الى سجنها منهوكة القوى

واخيراً عند الساعة الرابعة صباحاً حكموا باعدامها وفي مساء ١٥ اكتوبر قضت ساعاتها الاخيرة في الكتابة الى مدام اليصابات

---

(١) كلمات الملكة بعينها . تاريخ ماري انتوانيت صحيفة ٤٠٤

(٢) تاريخ جونكور صحيفة ٤١٥

أخت الملك وضمنت ذلك التحرير وصيتها ولم تكن تملك غير شعرها فاوصت به لأولادها بعد أن قطعته بيدها وطلبت طعاماً ثم استعدت للموت وطلبت من زوجة السجان قميصاً فلبسته ولبست ثيابها التي كانت تلبسها أثناء المحاكمة وزادت عليها قطعة بيضاء حول عنقها ثم نامت الى ان أيقظها السجان وأنبأها بحضور الكاهن (جروا) فلما سألها اذا كانت تريد قبول العزاء الديني رفضت وأخذت تمشي في سجنها حتى اذا كانت الساعة السابعة فتح الباب ودخل سمسون الجلاد فقالت له :

— لقد عجلت يا سيدي في المجيء . أما كان يمكنك التأخر قليلا ؟

فلما أبى الرجل عاد اليها ثباتها وتناولت قليلا من الشوكولاته ولبثت رابطة الجاش لما قيدوا يديها بالحبال

وعند الساعة الحادية عشرة خرجت من سجنها وركبت العربة وحيدة لا يرافقها أحد ولا يرق لها انسان . ومشت بين صفين من الجند يتبعها الجلاد وفي يده طرف الحبل الذي ربط به يديها ومن ورائه مساعده والكاهن . كذلك كان موكب ماري انتوانيت ملكة فرنسا وابنة ملوك النمسا

واجتمع الناس بكثرة في الطريق لأنهم علموا ساعة قتلها وتجمهروا حولها يصخبون ويشتمون وعند الظهر وصلت بها العربة الى ساحة الاعدام فترجلت ومشت الى الموت بشجاعة ووضعت رأسها على النطع وما لبث الجلاد أن رفع ذلك الرأس وهو يشخب دماً وصاح : « فلتحي الجمهورية »

* * *

في عشية ذلك اليوم وضع أحد موظفي الجمهورية صورة حساب لا تزال محفوظة في المكتبة الملكية في باريس الى الآن وهذه صورتها :

« نفقات صرفت الى (جولي) شماس كنيسة (لافيل اليانيك) عن دفن اشخاص حكمت باعدامهم لجنة الامن العام وهم :

نمرة ١ . . . . .

نمرة ٢ . . . . .

. . . .

نمرة ٢٥ أرملة لويس كابيت (أي ماري انتوانيت)

ثمن نعش ٦ فرنكات

اجرة حفر القبر ٢٥ فرنكا

وفي ذيل الحساب المذكور ما ياتي :

« انا رئيس محكمة الثورة اطلعت على ما تقدم وصادقت على صرف مبلغ ٢٦٤ فرنكا لجولي شماس المادلين من خزينة الحكومة الوطنية . باريس في ١١ برومار في السنة الثانية للجمهورية الفرنسوية « الرئيس هرمان »

يعتبر أن دفن ملكة فرنسا كلف حكومتها ٣١ فرنكا أو ١٢٠ قرشاً

الفصل الثالث والعشرون

الملك لويس السابع عشر

فتكت الجمهورية بالملك والملكة وقضت على الملكية الا ان أنصارها وزعماءها لم يدركوا الطمأنينة التي يريدونها لأن بقاء ولي العهد حياً أبقى املا في أنصار الملكية . نعم ان الغلام كان في الثامنة من عمره وهو سجين في (التامبل) الا أن أنصاره ظلوا يعترفون به ملكا على فرنسا والكهنة في (الفاندي) كانوا يختمون صلواتهم بالدعاء للملك الغلام السجين فيقولون « مات الملك فليحي الملك » ولا ينكر أن بعض انصار الملكية نقموا على الغلام واتهموه انه اساء الى والدته بتشويه سمعتها وفاتهم أن غلاماً في الثامنة من عمره انما صدع باوامر سجانه سيمون الظالم القاسي فكان يجيب على الاسئلة الموجهة اليه في المحكمة مراعياً اشارات سجانه وتهديداته فما قال عن امه الا ما أراده سيمون خوفاً من العقاب الأليم لأن السجان كان يرهب الغلام بالتهديد والضرب والوعيد ولذلك شهد الغلام على والدته بما يشوه سمعتها وهو لا يدري ما يقول

وكانت حكومة الجمهورية قد عهدت بالغلام والعناية به الى سيمون الاسكاف وزوجته وصدر الامر أن لا يباح لسيمون الخروج من التامبل وأن يبقى ملازماً للغلام

وقبل قتل الملكة بيوم واحد جرى الحديث الآتي بين سيمون وزوجته فيما يتعلق باعدام الملكة

قالت زوجة سيمون :

— أخشى ان تفلت من يد الجلاد فانها لا تزال جميلة وربما استطاعت أن تؤثر في القضاة فانما هم رجال

— ولكن العدالة لا يؤثر فيها جمال الملكة

وانتهى الجدال بينهما انهما تراهنا على ما يأتي :

اذا أعدموا الملكة ظهيرة اليوم التالي تقيم زوجة سيمون وليمة في المساء . فلما اصبح الصباح ذهبت الزوجة الى ساحة الاعدام لتراقب بنفسها ما يجري ولبث سيمون مقيما على حراسة الغلام وما لبث أن رفس الباب برجله ونادى ولي العهد قائلا :

— تعال يا هذا لنصعد الى الشرفة وخذ كرتك معك والعب وافرح واضحك فهذا يوم عيد للجمهورية وساجعلك جمهوريا فاذا شئت ان لا يوجعك سوطي كن فرحاً اليوم

— ارحمني يا سيدي فقط وأنا أفعل ما تريد

وصعد الى الشرفة وأطل سيمون فسمع أصوات الطبول والهتاف ورأى الجماهير فعلم أنهم يهرعون الى ساحة الاعدام وأنه سيربح الرهن وساءه اضطراره الى البقاء حيث هو فضرب الفتى ضربة أليمة وصاح به :

— أنت سبب غيابي اليوم يا شقي

فاغرورقت عينا الفتى بالدموع وقال :

— عفوك يا سيدي اذا كنت قد أسأت اليك في شيء

— نعم لقد أزعجتني وسأعاقبك فامسح دموعك حالا واضحك وافرح أو أذيقك عذاب الجلد

فخاف الولد وأخذ يضحك ضحكا عالياً

وبعد قليل عادت زوجته (جان ماري) وأنبأته بمقتل الملكة . وفي المساء أدبت لزوجها مأدبة تدفق فيها الخمر فاعطيا الغلام قطعة من الحلوى واضطره سيمون تحت طائلة العقاب أن يشرب شيئاً من السكونياك

ومن ذلك الحين بقي الغلام تحت سلطة سيمون وزوجته الشريرة الظالمة وعبثاً حاولت عمته وشقيقته مشاهدته أو محادثته فاقتصرت مشاهدتهما له على دقائق برؤيانه فيها من خلال شق الباب وهو ذاهب الى الشرفة مع سجانه وكانتا أحياناً تسمعان صراخه وعويله فعلمتا أن سيمون يضربه ويظلمه . وانما كانت ذنوب الصبي أنه يأبى تناول السكونياك أو أنه لا يضحك أو أنه طلب الذهاب الى والدته أو أبى أن ينشد الأغاني المهينة لوالدته . فقد خضع لسجانه في كل شيء الا في انشاد الأغاني المهينة لوالدته رغماً عن الضرب والتهديد . ثم انه انقطع عن السؤال عن أمه وعمته وأخته خوفاً من العقاب الأليم ولكنه اذا سمع حركة وقع أقدام في الغرفة العالية التي سجنت فيها عمته وأخته ركع ورفع بصره الى السقف وبكى . وكان اذا جن الليل ركع ويعيد الصلاة التي تعلمها من والدته فانتبه سيمون مرة الى صوت الغلام فايقظ زوجته قائلا:

— اسمعي ما يقوله « هذا العفريت الصغير » وانظري كيف أعالجه ليشفى من هذه العادات

ثم نهض كالوحش من سريره وتناول أبريقاً من الماء البارد وسكب ما فيه على رأس الصبي وهو يصلي فانتبه لويس شارل

مذعوراً وما لبث أن استلقى على فراشه خائفاً الا أن الفراش كان قد تبلل الا المخدة فتناولها الصبي وسار بها الى زاوية الغرفة وجلس عليها ولكن أسنانه كانت تصطك برداً فايقظ صوتها سيمون مرة أخرى فنهض ولبس ثيابه وهو يشتم و يلعن فقالت زوجته :

— حسناً تفعل أن تعطي الصبي درساً قاسياً

فهجم سيمون على الغلام حيث كان جالساً على المخدة وهو يرتجف برداً بقميصه المبللة فتناوله من كتفيه وأخذ يشده ويرمي به من ناحية الى أخرى قائلا :

— ساعلمك كيف تقوم ليلا وتصلي فتزعجني

ولما رأى سيمون سكوت الغلام تعاظم غيظه فتناول حذاءه وفي نعله مسامير غليظة وأوشك أن يضرب الصبي به لولا ان الغلام أمسك بذراع ظالمه وقال :

— ما الذي فعلته يا سيدي حتى أراك تريد أن تقتلني ؟

— وهل أنا أريد أن أقتلك ؟ أم تجهل يا شقي انني لو أردت ذلك ما عشت يوماً واحداً

ثم تناوله ورماه على فراشه المبلل بالماء فانطرح لويس شارل لا يشكو ولبث في مكانه البارد طول الليل وهو يرتجف وأسنانه تصطك برداً [١]

ومن ذلك الحين طرأ على الغلام انقلاب عظيم . فقد كان حتى الان اذا عذبه السجان وامرأته نظر اليهما نظرات الاستعطاف

---

(١) من تاريخ « لويس السابع عشر » تأليف (بوشاسن) المجلد الثاني . صحيفة ١٨٥

فاصبح الآن يغض من بصره وكان يسرع الى العمل بأوامر سجانه فامسى لا يهمه ذلك اذ تأكد ان العبودية من نصيبه على كل حال وامتقع لونه الجميل وهزل جسمه وتشوه وجهه وطالت عضلاته عن سنه وانحنى ظهره ثم لما علم انهما يغيران كل اقواله على هواهم لزم الصمت فلم يتكلم الا بعد العذاب الاليم . وكان سيمون يأمره أن يضحك و يلعب ثم ان يسكت ولا يتحرك مدة ساعات أو يأمره ان لا يلمس قفص العصافير وقد كان القفص كل ما أبقوه لتسالية الغلام . وفيه بعض العصافير مع عصفور صناعي متحرك يتنقل و يرفرف بجناحيه و يغني نشيداً كان مشهوراً في عهد الثورة عنوانه « يا ريتشارد مولاي الملك » . وجدوا هذا القفص بين الآثار الملكية فشفق أحد الحراس على الصبي وسأل سيمون ان يأخذ القفص فرضي لانه وجد فيه تسلية له ولزوجته وقد امتنع عليهما الخروج من (التاميل) . وحدث ذات يوم أن (ميلر) المراقب اليومي زار السجن وعلم من الصبي انه ضجر من الطير الصناعي فارسل اليه قفصاً فيه ٣٠ طيراً من الكنار ففرح الغلام وكان يلهو بها و يطعمها و يعلمها وتعلق بكنار خاص فعلق في عنقه شريطة وردية اللون اخذها من الطير الصناعي ولكن اتفق في ١٩ ديسمبر سنة ١٧٩٣ قدوم المفتشين الى السجن وحال دخولهم الى غرفة الصبي سمعوا الطير الصناعي ينشد نشيد الملك فغضبوا لما عدوه خيانة وتناول احدهم الكنار الأليف وقتله خنقاً و رفعوا تقريراً بما رأوا فصدر الأمر باخراج العصافير والقفص وأرسلوا يوبخون

سيمون فساءه ذلك فضلا عن فقد الطيور ونسب كل تغيظه الى الغلام فلما اصبح قال لزوجته :

— ان هذا الشقي قد أغاظني فلم أنم . وأشعر بألم في رأسي فيجب أن أغسل رجلي لأخفف ضغط الدماء على أذني

وما لبثت زوجته أن جاءته بإناء لغسل رجليه وفيه الماء الساخن وفيما هي يغسل رأت ولي العهد وقد جلس على الكرسي لا يتحرك ولا يتكلم فصاح به :

— خذ الفوطة يا هذا ودفئها على الموقد لأمسح بها قدمي .

فصدع الغلام بامر طالمه ووضع الفوطة تجاه النار ولكن شدة اللهيب أثرت في أصابعه الصغيرة فسقطت من يده واحترقت قبل ان يتمكن الصبي الخائف من اخراجها فصاح به سيمون صيحة الغضب واخذ يلعنه ويلعن والديه فتناول الصبي فوطة اخرى ودفأها بعناية ثم اقترب من سيده بحذر وخوف واراد ان يمسح قدميه فدهما سيمون الى الغلام حتى اذا انتهى ولي العهد من الخدمة رفسه الشقي بشدة فوقع ولطم رأسه الأرض بعنف واغمي عليه فضربه وكان يرفعه ويضرب به الأرض ثم رفع يده وأراد ان يضربه بجمع يده الا أن زوجته كانت قد دنت منه فامسكت يده فصاح بها :

— ما بالك ولماذا تمسكين يدي

— لأنني لا أريد أن تقتله

فضحك سيمون وقال : — أخشى أن يكون الحنان قد استولى على قلبك

— لا ولكنك اذا قتلته قتلوك حتى لا يتهمهم الناس انهم حرضوك على قتله

— صدقت وسأقتصر على ضربه فقط بحيث لا يموت

ثم صاح بالغلام : — انهض أيها الثعبان واغرب عن نظري ولا تهيج غضبي

فنهض الغلام وذهب فغسل يديه المرتجفتين والدماء المتدفقة من فمه وأنفه . واذا بصوت ضحك أشبه بالبكاء قد استرعى سمع سيمون واذا بزوجته قد استلقت على الارض وقد امتقع لونها بعد ما سقطت عن كرسيها وأغمي عليها فنقلها الى سريرها وأخذ يعالجها وقد خاف أن تموت فيبقى وحده مع الصبي الى أن أفاقت فقالت انها مريضة متألمة فقال انه يذهب ليأتيها بطبيب فأبت أن يتركها وحدها مع الغلام لانها تخاف

فقال : — وممن تخافين ؟

قالت همساً : — انني أخاف هذا الصبي واذا بقيت معه وحدي فهو يقتلني فاصرفه الى غرفته لأنني لا أطيق النظر اليه أو افقد عقلي

فصاح به سيمون فانصرف الغلام مهرولا الى غرفته الصغيرة المظلمة وأسرع يريد استدعاء طبيب ثم عاد يقول ان البواب ذهب من تلقاء نفسه لاستدعاء الطبيب من مستشفى الحكومة . فقالت زوجته :

— لا فائدة من حضور الطبيب . اعطني كاس ماء لأن فمي يكاد يحترق وادع الغلام الى هنا فهو في غرفته المظلمة يزعجني بعينيه البراقتين . فسقاها ماء وقال في نفسه انها مريضة وقد

ادركيها الحمى ولكن لا بد من العمل باشارتها لئلا تصل الى درجة الهذيان وتنتهي الى الجنون ثم صاح بالغلام بصوت عال :

— ادخل يا ابن الذئبة . ادخل يا شقي

فاسرع الصبي خائفاً مرتجفاً وجلس على كرسي من خشب . فصاحت جان ماري مذعورة :

— لا اريد أن ينظر اليَّ بعينيه الخفيفتين لأن نظره يؤذيني كثيراً

فصاح به سيمون : — حول وجهك الى الحائط يا شقي

الفصل الرابع والعشرون

الدكتور نودين

وفتح الباب المؤدي الى الدهليز وأبصر سيمون رجلا شيخاً يستند الى عصاه فدخل الزائر الغريب وقد ارتدى رداء من القطيفة السوداء ومن تحته صدرة من جنسه وعلى ساقيه جرابات من الحرير وحذاؤه نصفي وأطراف اكمام ثوبه مطرزة وقبضة عصاه من ذهب . فضحك سيمون وقال :

— أي المساخر هذه . وماذا تريد يا رجل

فاجاب الزائر بلطف : - انني لا أريد شيئاً منك ولكنك ايها المواطن أنت تريد مني شيئاً وقد أرسلت تدعوني اليك

— اذاً فانت الطبيب ؟

— نعم انا المواطن نودين

فصاح سيمون بدهشة : ــ أنت نودين رئيس الاطباء وقد جئت بنفسك لعيادة زوجتي ؟

ــ وهل يدهشك مجيئي أيها المواطن سيمون

ــ كيف لا يدهشني مجيئك وطالما قيل لي أن نودين وهو اشهر أطباء باريس لا يبرح المستشفى وأن الاشراف طالما توسلوا اليه أن يعود مرضاهم فلم يقبل بل ان المرأة النمساوية نفسها لم تفلح في حملك على زيارتها في فرسايل وكان جوابك « انا طبيب الفقراء والمرضى في المستشفى ومن كان مريضاً وفقيراً فليأت الي في الدار المسماة باسم الله وأما من كان غنياً ولا يريد دخول المستشفى فليطلب طبيباً سواي لأن واجباتي للفقراء والمرضى لا تبيح لي مزايلة مكاني » وقد روى لنا مارات العظيم انه لما وصل جوابك هذا الى القصر ركبت الملكة عربتها وذهبت اليك في باريس لتستفيد من رأيك فهل الرواية صحيحة وهل أنت حقيقة الدكتور نودين ؟

ــ نعم أيها الرفيق

ــ وقد تركت المستشفى العظيم لتزور زوجتي المريضة ؟

ــ أليست زوجتك من المرضى الفقراء ؟ أما هي امرأة من الشعب الفرنساوي المحبوب الذي وقفت حياتي وعلمي على خدمته؟ ان الدكتور نودين لا يزايل المستشفى من اجل ملكته ولكنه يفعل بسرور من اجل امرأة من الشعب . والآن اسمح لي أن أرى زوجتك فما جئت للكلام والحديث

ومشى الطبيب الى فراش المرأة وجلس على كرسي امامها و بدأ يدرس حالتها فبسطت اليه يدها وكانت تجيب على اسئلته بصوت

ضعيف بينما سيمون يراقب بدهشة واعجاب ومن ورائه في زاوية الغرفة جلس ابن ماري انتوانيت ذليلاً لا يتحرك الا انه رغماً من اوامر سيمون تحول الى جهة السرير لا لينظر الى المرأة المريضة بل الى الطبيب الجليل بملابسه التي هي ملابس الأشراف والتي رددت الى ذهنه حياته الماضية وقاعات سراي فرسايل وتجلت لعينيه اشباح الفرسان والاعيان وما لبث الطبيب ان قال لسيمون :

— ما بالك تنظر اليَّ بامعان ؟

قال سيمون :

— انني استغرب كثيراً كيف تجسر على المسير في شوارع باريس بهذه الملابس . فانها ملابس الاشراف ولو لبسها سواك لكان القتل نصيبه وانت تجسر على هذا .

— لا تستغرب فليس في عملي شيء من الجرأة . فانما انا البس الملابس التي تعودتها منذ سنوات كثيرة وقد كانت توافقني في عهد الملكية كما انها لا تزال موافقة لي في عهد الجمهورية . وقد صرت شيخاً فلا اطيق الازياء الجديدة

فضحك سيمون وقال : — انا لا اعارضك ولكني استغرب انهم يسمحون لك بهذه الملابس ولا يقتلونك

— لو قتلوني ماذا يفعلون في المستشفى ؟ واذا قطعوا رأسي اعجز من العمل لما كنت انا رأس المستشفى ولا سبيل الى من يقوم مقامي وبما انني رغما من ملابسي الملكية لا ازال اشفي المرضى فان كبار الزعماء يكفلون لي الحرية لانهم يعلمون ان هذه الملابس تستر قلباً ديموقراطياً . اما الآن فدعنا من هذا ولننظر في مرض زوجتك انها

مريضة ومحمومة واخشى ان تسوء حالها اذا لم نعجل في معالجتها ونسقيها شرابا يبرد غليلها

— عالجها ايها الطبيب واشفها . او افقد عقلي في هذا البيت الملعون . وانما زوجتي مريضة من هذا البيت ومن هذه المعيشة لانها لم تالف الخمول والجلوس كأنها في سجن محرومة من النزهة والهواء النقي

— ولكن لماذا لا تخرج زوجتك الى النزهة فتتمتع بالهواء النقي

— لانها لا تملك ذلك ولان هـذا الشقي الصغير جعل حياتنا مرة ووضعنا في سجن دائم . انظر اليه فهو السبب الذي يحول دون ذهابي الى المدينة وزيارة النادي والمجلس او مقابلة احد من الناس كانني من المجرمين

فصاحت الزوجة من سريرها : نعم — نعم . هو السبب في كل ذلك لا بارك الله فيه وقد ازعجني واقلقني وغير اخلاقي . انه ينظر اليّ مرة اخرى ونظراته تخترق قلبي وتحرقه

فهجم سيمون على الغلام وصاح به :

— كيف تجرأ على تحويل بصرك اليها بعد ان امرتك ان لا تفعل يا جرو الذئبة . سألقي عليك درساً لا تنساه

ولطم الغلام على ظهره واراد ان يعيد الكرة الا ان يداً من الحديد قبضت على يده واذا بالدكتور نودين قد امسكه وصاح به صيحة مخيفة

— ماذا تفعل يا شقي

فتردد سيمون امام حدة الطبيب ثم ضحك وقال :

— ما بالك ايها الطبيب تنتصر له وهو يستحق العقاب

— قاتل الله العجلة ايها الرفيق ولكنني اعتقد انك رجل فاضل فلم يرق لي ان اراك تفعل ما لا يليق بجمهوري و بفاضل ايضاً

— وما الذي فعلت

— انظر الى الغلام الباكي المضروب المهان الذاهل المرتجف

— ولكنه يستحق العقاب . فهو ابن الذئبة المرأة النمساوية

— ولكنه في الوقت نفسه انسان ثم هو صبي ضعيف لا حول له ولا نصير وقد حرمته الجمهورية من والديه وجعلته تحت رعايتك لتعتني به وتربيه كما تربي ولدك . أكنت تضرب ولدك كما ضربته الان ؟

فصاحت امرأة سيمون من سريرها صيحة ازعجت زوجها فقال :

— لا افعل ذلك مع ولدي ولكنه ما كان ليقلقني كهذا الغلام فهو يزعجني من الصباح الى المساء فاذا امرته ان يغني معي ابى ومتى وجب ان يسكت تكلم . هل تصدق ايها الطبيب انه بالامس اقلقني من نومي اذ ركع ليلا واخذ يصلي فازعجني وازعج زوجتي

فقالت زوجة سيمون : — ومن تلك الليلة ادركني المرض ولم أعرف طعم النوم والراحة

فقال سيمون : — وسأريك الآن دليلا على عصيان هذا الشقي . تعال الى هنا يا غلام

فمشى الفتى خائفاً الى سيده فقال سيمون :

— دعنا نغني الآن ليرى الطبيب انك عريق في المبادىء

well ...

الجمهورية . وانك نسيت انك ابن المرأة النمساوية . هيا بنا ننشد أناشيدها . عجل او اضربك . اسرع وابدأ بالنشيد

فرفع الفتى بصره بانفة الى سيمون وقال :

— أنا لا أنشد لانني لم أنس والدتي العزيزة . ولا اقدر ان اقول عنها كلمة سوء لانني احب والدتي العزيزة كثيراً و...

ثم توقف الصبي عن الكلام اذ خنقته دموعه وحنى رأسه منتظراً العقاب ولكن قبل ان تقع يد سيمون عليه صاحت زوجته من فراشها قائلة :

— يا سيمون اقترب مني ساعدني على نزع الخنجر من صدري فانني اموت . انا مائتة لا محالة

فاسرع اليها وضمها الى صدره قائلا : — اي خنجر تعنين .

فهمس الطبيب في اذنه : — تمهل فهي تهذي لشدة الحمى والخنجر الذي تشير اليه هو في قلبها وضميرها . فاذا شئت ان تسلم يجب ان تبعد عنها كل ما يزعجها ولا تهيج اعصابها بل يكون كل شيء حولها ساكناً هادئاً . وسأرسل اليها علاجا نافعاً وغداً صباحاً اعود اليها . وانجع علاج لفائدتها الهدوء والسكينة

فطرد سيمون الغلام من الغرفة الى غرفته الصغيرة وهناك جلس ورفع بصره الى السقف وعلى ثغره ابتسامة اذ سمع وقع اقدام في الغرفة العليا فقال :

— هذه والدتي تمشي

ذلك لان سيمون لم يبلغ الصبي خبر مقتل والدته . ثم خيل له ان والدته وعمته واخته اقبلن عليه وضممنه اليهن بحنان بل رأى

زوجة سيمون تدنو منه بلطف ومحبة فضمته الى صدرها وقبلته طويلا وكانت تبكي وتقول له : — عفواً ايها الملاك التاعس لا تقضي عليّ سأحسن معاملتك وانقذك من هذا العذاب . ما اتعس زوجي انه شوه وجهك بالضرب ولكنني كنت أتألم لمصابك . ثم رآها وقد تركته فجأة وفتح الباب وسمع سيمون يقول لزوجته :

— ماذا تفعلين في غرفة هذا الشقي

— حضرت لاراقبه ولأ تأكد انه لم يهرب و يشكونا الى اولياء الامور بحجة اننا تركناه وحده

— لا تخافي وفضلا عن هـذا فقد حضر الدواء الذي ارسله الطبيب وغداً يأتي بنفسه ليرى تاثير العلاج

وفعلا جاء الدكتور نودن في الغد . وكان سيمون عند حضور الطبيب قد صعد الى الغرف العليا ليبلغ الاميرات السجينات اوامر الحكومة وأمر الغلام ان يبقى في الغرفة الخارجية فاذا جاء الطبيب يفتح له الباب . ولذلك لم يكن سواه في الغرفة عند حضور الطبيب والباب المؤدي الى الغرفة الاخرى مقفل فلم تكن زوجة سيمون ترى او تسمع ما يجري وللحال قال الغلام للطبيب بصوت خافت :

— لقد احسنت اليَّ امس يا سيدي ومنعت عني الضرب والاهانة فاريد ان اشكرك وليس لديَّ ما اظهر به امتناني غير هاتين التفاحتين وقد اعطوهما لي للعشاء امس و بما انني فقير الى هذا الحد ارجو ان تقبلهما مني [1]

ثم اخرجهما الغلام من جيبه ودفعهما الى الطبيب . واذ ذاك

---

(١) كلمات ولي العهد بعينها . تاريخ بوشيسن مجلد ٢ صحيفة ١٨٩

حدث ما لو رآه سيمون لذعر واضطرب . ذلك ان الدكتور نودين الشريف الشهير العظيم رئيس أعظم مستشفى ركع بملابسه الثمينة (امام الغلام) في ملابسه الرثة وتناول هديته وقال بصوت تخنقه الدموع :

— أنا أشكر جلالتكم . انني لم احصل في حياتي على هدية أعظم من هذه الفاكهة التي تفضل عليّ بها ملكي التاعس وأقسم لك ان أكون خادمك الأمين

وقبل يد الغلام فسقطت على تلك اليد دموع الطبيب الذي طالما نظر غير متأثر الى أعظم نكبات الانسان في أشد امراضه . ثم سمع وقع اقدام فنهض ودخل غرفة المريضة واذ ذاك عاد سيمون وانزوى الغلام في غرفته واقترب الطبيب من المريضة فسألها عن حالها فاجابت : أنها سيئة وكان قلبها يحترق فلا يقر لها قرار ليل نهار وان منيتها قد دنت وأنها تفضل الموت فراراً من العذاب الاليم الذي تعانيه في هذا السجن المخيف . فسألها عن آلامها كيف تشعر بها فأجابه سيمون : — عندي الخبر اليقين . فهي تتألم في كل عضو من جسمها لان آلامها ناشئة عن هذا المكان المخيف . نعم ان اولياء الأمور شرفونا بثقتهم وعهدوا الينا حراسة الغلام ولكنها ثقة تؤدي بنا الى الموت اذ لا نطيق هواء السجن وسكينته المخيفة والعزلة المملة فلا نرى الا الغلام وتخيفنا نظراته وقد كانت زوجتي قوية مسرورة فضعفت وزالت بهجتها وكانت اشد الناس انتصاراً للجمهورية بل حضرت مقتل المرأة النمساوية . . .

فقاطعته زوجته جان ماري وقد نهضت من سريرها وقالت بحدة :

— لا تذكر تلك المرأة لئلا يسمعك الصبي و ينظر اليّ نظراته المخيفة . لا تذكر ذلك اليوم الهائل فقد كان بدء مرضي وأظن ان الكونياك الذي شربناه يومئذ كان مسموماً ومن ذلك السم جاءت آلامي الدائمة وسأموت بدون ريب

فقال سيمون . ــ الحقيقة يا حضرة الطبيب اننا لم نتعود هذه المعيشة واذا طالت نموت

فقال الدكتور نودين : ــ اذا كان الأمر كما تقول فما بالك لا تستقيل وتتولى غير هذا العمل

قال سيمون : ــ لقد استقلت غير مرة فكان الجواب ان الوطن يأمرني بالبقاء حيث انا اذ لا يوجد من يقوم مقامي . فقالت زوجته :

— أريد أن يفحص الطبيب جسمي فحصاً دقيقاً ولا اسمح بذلك وأنت هنا ياسيمون

فقال : ــ سأذهب عنكما ولكنني أستنكر هذه الأخلاق

قال الطبيب : ــ بل هي أخلاق المرأة الفاضلة فانها لا تبوح بأمراضها الخفية لغير طبيبها

فقال سيمون : ــ انني سأذهب مع الغلام الى الدور الأعلى ريثما ينتهي الطبيب من عمله . فلما مضى وانفردا قال الدكتور نودين : ــ هاتي ما لديك عن مرضك ولا تكتمي شيئاً فقالت :

— أخاف ياسيدي أن تفشي أمري وأن يكون القتل نصيبي ونصيب زوجي

— ما أنا خائن . والطبيب مثل الكاهن يكتم أسرار مرضاه

ومع ذلك فانني آتيك بالدليل على أمانتي وأبين لك اني عارف بما يؤلمك . فاعلمي يا جان ماري سيمون انك تشكين من ألم لا يعادله ألم جسدي . ومرضك في ضميرك و يدعى مرض الندم واليأس . فوقتنا قصير وحديثنا طويل . ويجب أن نتكلم همساً لان الجدران في هذه الأيام لها آذان

* * *

وانتهى الدكتور من حديثه الطويل فوقف وقال المريضة :ـ اعتمدي عليّ . ثقي بي كما اثق بك . انك عزمت على القيام بعمل شريف واذا تيسر لنا النجاح حسنت صحتك و زالت مخاوفك وغفر الله لك سيئاتك لأن عرش الله محاط بشهيدين يشفعان لك . فافعلي كل شيء حسب ارشادي و بياني وخاطبي زوجك الليلة لئلا تذعره المفاجأة بافشاء السر

— سأفعل . وأشعر الآن أن قلبي بدأ يرتاح . ثم هل تحضر غداً

— لا . ولكنني سأرسل من هو ادرى مني في انجاز هذا العمل وسيذكر عند مجيئه انه معاوني فثقي به ثقة تامة وحادثيه طويلا فيما تكلمنا عنه الآن . انني اسمع سيمون عائداً فاودعك

وانصرف فرأى سيمون والغلام في الخارج

فقال سيمون : ـ ارى ان زوجتي اطالت في اطلاعك على جميع اسرارها فقد مضى على خلوتك نحو ساعة ولولا انك شيخ لكنت من الغيورين

— انت اوفر عقلا من ذلك ويهمني ان تعلم ان زوجتك لا تلبث ان تفقد عقلها او تنتحر اذا بقيت في التامبل اكثر من

اسبوع واحد وسيحل بك مثل ذلك اذا بقيت في هذا المكان وتصاب بالسل

فقال سيمون مذعوراً : ــ وهل تظن انني معرض لمرض السل

ــ بل انت مصاب به فعلا الآن بدليل الأعراض الظاهرة فاذا لم تتدبر طريقة للخروج من هذا المكان انتهى بك الحال الى ما لا يحمد ومع ذلك فالأمر اليك

وانصرف الطبيب فعزم سيمون على تقديم استقالته في الغد

الفصل الخامس والعشرون

ابن اخت الماركيز

عاد الدكتور نودين الى مقره في المستشفى فقال له الحاجب ان الرجل الذي جاء أمس لاستشارته عاد في غيابه وهو ينتظر داخلا. فمشى قاصداً مقصورته فقال له خادمه هناك بعد أن تناول رداءه :ــ ان الدكتور صبونيه العجوز هنا مرة أخرى . وقد أصر على انتظارك ويقول انه يريد أن يأخذ رأيك في مريض وانه لا ينقطع عن الالحاح الى أن ترافقه الى بيت مريضه لأنك اقدر انسان على شفاء الرجل

فضحك الدكتور نودين وقال لخادمه : ــ أنت جاهل لأنك سمحت له بهذا الاطراء . ودخل الى مقصورته فاستقبله شيخ هرم في مثل ملابسه وبينما كان الخادم يقفل الباب سمعه يقول : ــ

الحمد لله انك رجعت فقد طال انتظاري والان أتوسل اليك أن ترافقني في الحال الى مريضي

ففتح الدكتور نودين باب مكتبه الخاص وقال لزائره : — ادخل أيها الوطني صونيه واشرح أولا حال المريض

وكان هذا كل ما سمعه الخادم إذ دخلا وأقفلا الباب وبعد قليل خرجا وركبا عربة سارت بهما الى منزل في شارع موغارتر ففتح البواب وسلم على الدكتور صونيه وقال : — أظن أن رفيقك هو الدكتور نودين الشهير

— نعم وهو أقدر انسان على معالجة مريضنا . ثم صعدا السلم ودخلا بيتاً ترك بابه مفتوحاً ثم أوصدا الباب بالقفل ومشيا الى غرفة قرع صونيه بابها ثلاثاً وكرر العبارة الآتية ثلاثاً « ان الأطباء حضروا لعيادة المريض »

ففتح الباب وظهر رجل أشار اليهما بالدخول فلما بلغا الغرفة الداخلية قال صونيه : — هل نحن وحدنا قال الرجل : — نعم . وفي الغرفة هناك غلامي المسكين المريض وأنت تعلم أنه لا يستطيع الوشاية لأنه لا يعي شيئاً مما يجري حوله

فقال الدكتور صونيه : — أنا أعلم ذلك وقد جئتك حسب وعدي بالدكتور نودين الشهير وصديق العائلة الملكية الحميم التي أقسمنا الاخلاص لها حتى الموت

ثم تحول الى الدكتور نودين وقال : — انني لم اذكر لك اسم الرجل الذي سألتك مرافقتي اليه لأن اسمه سر لا يملك افشاءه إلا صاحبه

فقال الرجل باسماً : ـ وأنا أبوح به الان فاعلم أيها الطبيب أنني الماركيز جارجيز

فقال الدكتور نودين بلهفة : ـ أنت الرجل الذي أراد أن يساعد العائلة الملكية على الفرار ؟ تخسرت أملاكك في خدمة الملكة وخاطرت بحياتك في سبيل انقاذها ولم تنج من القتل إلا بالفرار . أنت الماركيز جارجيز الأمين المخلص الشجاع ؟

ـ أنا جارجيز . واشكرك على الاطراء ولكنني لا أستطيع قبول مديحك لي بحضور الرجل الذي يستحق كل اطراء أكثر مني بل هو أجدر بالثناء من كل انسان . نعم أنني لا أستطيع قبول المدح بحضور طولان اشجع الرجال وأكثرهم اخلاصاً وأمانة لانه عنوان الاخلاص وقد جاهرت سيدتنا الملكة الشهيدة بذلك عندما منحته أعظم ألقاب الشرف والتكريم اذ دعته « الأمين » وهو لقب يعيش الى الأبد

فوضع الدكتور نودين يده على كتف الدكتور صونيه وقال : ـ صدقت أيها الماركيز أنه أعظم منا امانة واكثر اخلاصاً ولذلك فلما جاءني منذ أيام وأراني زجاجة عطورات الملكة تأييداً لكونه طولان قبلت ان افعل كل شيء يطلبه مني ووافقت على مساعيه جميعها لان اخلاصه يحمل كل انسان آخر على الاقتداء به

فقال طولان (وهو المتنكر باسم وشكل الدكتور صونيه) :ـ عفواً سادتي فلا شكر على ما هو طبيعي . لقد وقفت حياتي على خدمة الملكة ماري انتوانيت وأقسمت ان اكون أميناً لها ولعائلتها .

فالآن وهي قد ماتت وعجزت عن انقاذها فاننا نسعى لانقاذ ولدها وهذا ما يحملني على بذل كل جهد لتحقيق آمالها وقد شاء الله تعالى ان لا انفرد في عملي وان يشاركني فيه نبلاء القوم ثم بارك الله مساعينا بدليل اننا ونحن نهتم في تدبير طريقة للوصول الى ولي العهد السجين جاءتنا الصدف بطريقة موافقة . اذ في الساعة التي ذهبت فيها الى الدكتور نودين وافشيت له سري وعرفته بنفسي جاء بواب التامبل يطلب منه ان يزور زوجة سيمون

فقال نودين : — نعم انه اتفاق غريب . واذكر لكم انني لما رأيت ابن الملكة في ذله وحزنه ركعت أمام الملك الصغير وأقسمت في سري أن أكون مساعداً أميناً لطولان في تحقيق مساعيه واطلاق سراح الغلام

فقال الماركيز جارجيز : — وأقسمت أنا أن أحذو حذوك . ولئن كانت الملكة قد ماتت فان اخلاصنا لها يتجدد في خدمة نجلها لويس السابع عشر . أنا اعلم أن البوليس لا يجهل وجودي هنا وانني متنكر باسم الوطني (أوراج) ولكنهم أمهلوني ليعلموا بقية أصحابي . على أن هذا لا يؤخرني عن العمل . فقد جئت لانقذ الملك التاعس من عذابه . ولا أخفي عنكم أمراً فقد تمكنت من الحصول على مساعدة زعيم شريف غني كان أمينا للملك المقتول . أريد به البرنس دي كونده الذي أقمت في ضيافته هذه الشهور الأخيرة في (الفاندي) فقدم لي الأموال اللازمة وسيؤيدنا في جميع أعمالنا . فاذا تمكنا من انقاذ الملك الصغير وجد لدى البرنس مأوى حصيناً فيقيم في الفاندي محاطاً بأنصاره الأمناء الاقوياء .

وقد كانت العقبة الكبرى حتى الآن في سبيلنا اننا لا نملك اخراجه من التامبل . أما الآن فقد اهتديت الى طولان و بالاتفاق معه صار الامر ممكناً ولكنه صعب

فقال طولان : ـ أما الآن وقد حصلنا على مساعدة الدكتور نودين في وسعنا انقاذه . وقد دبرت الطريقة الموافقة وانجازاً لهذه الفكرة قصدت الطبيب لاسأله أن يزور الغلام المريض المقيم هنا مع الماركيز واذ ذاك جاء رسول السجان سيمون . والآن وقد حضر الدكتور نودين يجب أولا أن يعطينا رأيه الأخير في حالة المريض فاذهب به ياحضرة الماركيز الى غرفة الغلام المريض لان مصير ملك فرنسا يتوقف على رأي الدكتور نودين

دخل الدكتور نودين غرفة المريض فرأى غلاماً لا يتجاوز العاشرة من عمره وقد لفوه بالاغطية لفاً محكماً وهو ضعيف القوى هزيل الجسم أصفر لون الوجه وشعره أشقر وقصير وعلى وجهه ملامح الخمول والسذاجة المتناهية . ولما رأى الرجال نظر اليهم بدون أن يبدي أقل حركة تدل على ادراكه ولولا أنه كان يتنفس لحسبوه ميتاً . فنظر اليه الدكتور نودين بامعان وقال :

— هذا الغلام أصم لا يسمع

— صدقت أيها الطبيب

— وهل هو ابنك ؟

فقال الماركيز : — بل هو ابن أختي بارونة تارديف التي قتلوها مع زوجها فتوليت العناية بالصبي وعند انتقالي من باريس سلمته الى بعض أصدقاء العائلة فلما رجعت بلغني انهم قتلوا ايضا

ووجدت الصبي مهملا فنقلته الى هذا المنزل الذي استأجرته باسم (أوراج) وذهب طولان ليأتي بطبيب وكان من حسن الحظ انه جاء بك فأرجو أن تشفق عليه وأن تقبله في المستشفى

— دعني أولا أفحصه ثم أبدي رأيي

وبعد أن فحصه فحصاً دقيقاً قال :

— أيها الماركز أن هذا الصبي لا يشفى وخير له أن يموت فراراً من العذاب الدائم والذى أراه أنه قد يعيش سنة أخرى بعد أن يفقد عقله وذاكرته فلا يبقى الا جسمه . أنه مصاب بمرض لا يلبث أن يلتهم جسده ويحوله الى عبيط . ولو أبيح لنا أن نضع يد العلم موضع يد الله لكان من رأيي أن تقتل هذا المخلوق الذى لا يعد انساناً ولا هو حيواناً ولا رجاء له في الحياة الا بالعذاب

فقال طولان : — وهل تعتقد يقيناً أن هذا الغلام لا يشفى

— أنه رأي يشاركني فيه كل طبيب

— وأنه لا يربح اذا عاش ولا يخسر اذا مات ؟

— نعم . بل أعتقد أن موته راحة له من العذاب

— اذاً أنا أعطي هذا الغلام المريض وظيفة أشرف وأسمى . أجعل حياته بركة لسواه ويكون موته أكليل فخار له . وأنت يا حضرة الماركيز جارجيز انني باسم الملك لويس السادس عشر وباسم الشهيدة العظيمة التي أقسمنا أن نخلص في خدمتها واريد بها الملكة ماري انتوانيت أطلب منك أن تعهد اليّ بهذا المخلوق التاعس وتجعل حياته رهن ارادتي . انني باسم ماري انتوانيت اطلب من الماركيز جارجيز ان يعطيني ابن اخته هذا ليفعل

ما لا يتأخر كل فرد منا عن فعله في سبيل الغرض المقدس . أريد بذلك أن يعطي هذا الغلام حياته فدى لمولاه الملك لويس السابع عشر المسجون

عند ذلك ركع الماركيز باحترام عند سرير ابن اخته وغطى وجهه بيديه ثم نهض ووضع يديه على رأس الصبي وقال :

— أنك يا طولان قد خاطبتني باسم الملكة ماري انتوانيت وبصفتي ولي أمر الغلام سألتني أن ادفعه اليك لتكون حياته فدى لحياة مولاه الملك . ان رجال ونساء بيتي لم يتأخروا في كل زمان عن أن يقدموا بسرور وعظيم املاكهم وسعادتهم وحياتهم خدمة لملوكهم وانما أتكلم بلسان شقيقتي التي سفكت دمها لتؤيد اخلاصها للعرش وباسم أسلافي أيضاً وأقول : — هذا آخر سلالة البارونة تارديف هوذا ابن أختي . خذه ليموت أو يعيش من أجل مولاه الملك السجين لويس السابع عشر

الفصل السادس والعشرون

مداولات

فاتحت جان ماري زوجها سيمون بما ذكره لها الدكتور نودين فغضب أولا ثم رضي أن يتخلص من معيشته المرة وأن يحادث الدكتور في الموضوع . ولما أصبح الصباح جاء الطبيب بملابسه المعروفة فأباح له الحرس الدخول ولم يلاحظوا أن تحت تلك

الملابس رجلا غيره تزيا بزي الطبيب فلما دخل مع سيمون نظرت اليه الزوجة باستغراب فقال لها : ـ أنا رسول الدكتور نودين وقد ارسلني لاتفق معك على انقاذ الغلام . فقالت لزوجها :

ـ هذا هو الرجل الذي ينقذنا من العذاب الالم . ثم أعطاها علاجا فنهضت كأنها لم تكن مريضة وسارت بالرجل وزوجها الى غرفة الغلام وهو لا يتحرك فقبل الرجل يده فلم يتحرك فقالت المرأة : ـ انه على هذه الحالة من الذهول فقد حاول زوجي أن يجبره على شتم والدته ومن ذلك الحين انقطع عن الكلام

فقال الرجل :ـ أنه يسمع و يتكلم ولكنه فضل الصمت حرصاً على كرامة والدته أنظري الى دموعه فقد سمعني وفهم كلامي . آه يسيدي العزيز اقسم أن أخدمك باخلاص وأن أنقذك ولو مت في سبيل ذلك. انظر اليّ يا مولاي انني أبوح لك ولهذين الزوجين بسري لتعلم من أنا وتثق بي وتعلم أن الذي يجثو عند قدميك محب لك . افتح عينيك يا ملك فرنسا وانظر هل تعرفني ؟

ونهض الرجل واقفاً ونزع عنه الرداء الأسود ووقف أمامهم بثوب الحرس الوطني . فصاح سيمون : ـ انه . . . .

فقاطعه الرجل وقال : ـ لا تلفظ اسمي فيجب أن يعرفني هو اولا وينطق به وانت يا مولاي اقنع هؤلاء انك سلم العقل والذاكرة وتعلم ما يجري . انظر اليّ واذا عرفتني الفظ اسمي

فتبسم الغلام وانتبه وقال : ـ طولان . المخلص

فقال الرجل : ـ نعم انا طولان المخلص لك ولعائلتك

ثم اتفق مع سيمون على التدابير اللازمة لأنقاذ الغلام في اسبوع واحد. ذاك أن أحد موظفي جمعية الأمن العام كان مريضاً وينتظر أن يموت في ثلاثة أيام فيخلو منصبه ويخلفه سيمون فيه. وانصرف طولان الى المستشفى وعلى الأثر ذهب الدكتور نودين الى لجنة الأمن العام وأعطى تقريره عن الغلام وزوجة سيمون فوصف حالة الغلام وصفاً مخيفاً وأطرى سيمون وزوجه. ولما سألوه كيف يصلح حال الزوجة فارتأى نقلها وزوجها من التامبل قالوا ومن يعتني بالغلام قال ان الغلام في حالة مرضية لا يعيش معها طويلا لأنه مصاب بالسل وضعف الدماغ ولا يلبث أن يتحول الى حالة لا تستلزم شيئا من العناية فاسمحوا لي أن أتردد على الغلام مراراً وآتيه بما يسليه في أيامه الاخيرة من الالعاب التي يلهو بها أمثاله. وأخيراً سمحوا له بما أراد وقرروا اعطاء سيمون أول وظيفة تخلو

الفصل السابع والعشرون

فرار ولي العهد

بناء على أوامر اللجنة ارتأى سيمون أن يحضروا حصاناً خشبياً كبيراً يركبه الغلام ويلهو به وبمساعدة طولان والماركيز اشترى الحصان المطلوب وأوصلوه الى سجن ولي العهد بكل عناية. ولما خلا الجو لسيمون وزوجته فتحا جوف الحصان الخشبي

واخرجا منه ابن أخت الماركيز جارجيز ونزعوا ملابسه وألبسوه ثياب ولي العهد وجعلوه محله في فراشه وألبسوا ولي العهد ثياب غلام قروي وقصوا شعره وأوصوه أنه بعد الان سيكون ابن الغسالة ثم وضعوه في سل الملابس المستعملة التي ترسل الى الغسالة ووضعوا فوقه كمية كبيرة من ملابس زوجة سيمون وفي الوقت المعين لخروج سيمون وزوجته نهائياً من التامبل انتقلا بأمتعتهما والسل الكبير وفيه ولي العهد

وتفاصيل هذا الفرار ذكرتها زوجة سيمون سنة ١٨١٩ لراهبات الرحمة اللواتي اعتنين بها في مرضها الاخير وفي سنة ١٨٥١ كررت راهبات المستشفى النسائي أقوال جان ماري سيمون التي ماتت سنة ١٨١٩ وذلك أثناء القضية المدنية التي أقيمت على دوق نورماندي المتهم بانه ادعى زوراً انه الملك لويس السابع عشر ولم يتمكن من اثبات دعواه

وكان فرار ولي العهد على الطريقة المذكورة في ١٩ يناير سنة ١٧٩٠ فلما أوصلوه الى خارج باريس دفع طولان لسيمون المال المتفق عليه فقال سيمون : — ألا يفشي سري أحد ويشي بي الى الحكومة ؟ قال : — لا تخف فانه لا يعلم سرك غيري وحرصاً مني على سلامتك أفهمت جميع رفاقي انني خدعتك وأنك تجهل أمر فرار الغلام فلا يدري سرك سواي وأنا لا أفشي السر

فلما افترقا قال سيمون في نفسه :— اذا مات طولان بت أميناً على نفسي فالأوفق أن أدبر طريقة لهلاكه . وما لبث أن ذهب الى لجنة الامن العام فقال لهم : — انني أتهم طولان بانه يريد انقاذ ابن

النمساوية من التامبل ولعله نمكن من ذلك الان لأنني لما زايلت المكان لم يكن خلفي قد حضر وبقي الغلام وحده فارجوكم أن ترسلوا بعض رجال البوليس الى منزلي غداً لأدفع اليهم الخائن

الفصل الثامن والعشرون

موت طولان

عند الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي دخل طولان منزل سيمون الموظف الجديد فقال : ــ أرأيت أنني حريص على مواعيدي ولم اتمالك الصبر ولعلك لم تعدل عن فكرتك فتعطيني الهدية الثمينة التي لديك

فقال سيمون : ــ ان زوجتي أرادت أن تقدم لك الشعر بيدها وهي غائبة الان فانتظرها قليلا إن كنت راغباً في الحصول على شعر ولي العهد

فقال طولان : ــ نعم انني راغب في ذلك لأن شعر مولاي الملك الصغير هو أثمن شيء عندي

قال سيمون : ــ لا تبالغ يا هذا فان زجاجة الاملاح المنعشة التي أعطتك اياها المرأة النمساوية هي أثمن لديك من كل شيء آخر فهل هي باقية معك ؟

قال طولان : ــ ان مفارقة حياتي أسهل من مفارقة تذكار ماري انتوانيت

فقال سيمون ضاحكا : ـ اذاً فانظر أيهما أفضل هديتها أو حياتك

ثم فتح الباب فدخل رجال الامن العام ومعهم البوليس فقال سيمون : ـ أسمعتم كل شيء ؟ قالو : ـ نعم وقبضوا على طولان واستاقوه الى السجن

أما سيمون فانه تنعم بمال الخيانة مدة قصيرة . وبعد مضي سنة على هذا الحادث فقد عقله وحاول الانتحار ثم مات في مستشفى (بيساتر) وعاشت زوجته الى سنة ١٨٢١ في مستشفى باريس

وفي اليوم التالي ذهب جميع أعضاء لجنة الامن العام الى التامبل فوجدوا على الفراش غلاماً يئن وقد انهكته الحمى وهو في ملابس ولي العهد ولكنهم لم يتمكنوا من القول اذا كان هذا الصبي ـ وقد تورم وجهه وكثرت البثور في جسده ـ هو لويس شارل ام سواه . أما الذي كان يشعل النور في غرفته يومياً فقال انه غير ولي العهد وحسبوا أن المرض غير سحنته فاستدعوا الدكتور نودين وسألوه رأيه في الصبي فأكد لهم انه هو الغلام الذي رآه هناك لما دعي لمعالجة زوجة سيمون ولكن المرض وقص شعر رأسه غيرا شكله . وكذلك قال سيمون فقرروا انه الغلام نفسه وان يكتموا ظنونهم حتى لا يستعين بها حزب الملك . اما الغلام فانه مات في التامبل في ٨ يونيو سنة ١٧٩٨

اما طولان فقد قبض عليه في ٢٠ يناير وفي شهر مايو حكموا باعدامه وفي اليوم نفسه حكموا باعدام مدام اليصابات شقيقة لويس السادس عشر لانها خابرت اخوتها بواسطة طولان . اما هذا

فلما ابلغوه الحكم طلب ان يقتلوه في اليوم المعين لاعدام اخت الملك وان يبقى بجانبها ساعة اعدامها

فقال القاضي : — اذا يكون اعدامك غداً لانه اليوم المقرر لاعدامها هي

ولما اصبح الصباح مشت من السجن ثلاث عربات تقل كل واحدة منها ثمانية من المحكوم عليهم بالاعدام رجالا ونساء من اعظم اشراف فرنسا وقد لبسوا افخر ملابسهم كأنهم يذهبون الى حفلة رسمية . وكان جميع المسجونين من الشرفاء قد التمسوا شرف الاعدام مع الأميرة والذين ابيح لهم ذلك فاخروا به وقالوا : — اننا نشترك في التشريفة الملكية الاخيرة . ولما وصلوا ترجلوا وصعدوا الى حيث كانت آلة الاعدام وكان المجلس قد قرر ان يكون آخر الذين يعدمون طولان وقبله الأميرة اليصابات اخت الملك والتمس الرجال ان يتقدموا السيدات الى الموت فمشوا الى الجلاد الواحد بعد الآخر وكانو اذا مروا بالأميرة انحنوا باكرام عظيم كأنهم في حفلة راقصة وكانت تشكر لهم بابتسامة فلما اعدموا اثنى عشر رجلا حصلت فترة ريثما مسح الجلاد الغيلوتين من الدماء ثم جاء دور السيدات فالتمسن جميعاً ان يسمح لهن بمعانقة الأميرة وبعد تقبيلها ذهبن الى الموت باسمات الى ان بقي طولان والأميرة فقالت له :

— عن قريب سأكون مع اخي واختي . هات يدك يا اخي الأمين . وسر بي الى الموت ومتى وصلت الى دار الأبدية ابسط يدي اليك لأذهب بك الى ماري انتوانيت فأقول لها : « ايتها الأخت العزيزة هذا هو القلب الوحيد الأمين المخلص لك في العالم وقد جئتك به

الى السماء » واعلم ياطولان ان اشرف لقب للشرفاء هو الأمانة وقد قدسه الله تعالى في قوله « كن امينـاً الى الموت فاعطيك اكليل الحياة »

واذ ذاك فرغ الجلاد من اعدام ماركيزة كروسول دامبواز وصاح :

ـــ يا اليصابات جاء دورك

ـــ أنا آتية

وصعدت الى النطع وتبعها طولان فوضع يده على ذراعها وقال:

ـــ ايتها الأميرة اريد ان اطلعك على سر كنت قد اقسمت أن لا أبوح به لحي . اما الآن فانك صرت في عداد الخالدين ونعمة الله تكلل جبينك واريد أن ادخل على قلبك فرحاً قبل صعودك الى السماء . ذلك السر المصون هو أن الغـلام المسجون الآن في التامبل ليس ولي العهد . لقد انجزت وعدي للملكة . وأنقذت ولدها وهو الآن في (الفاندي) برعاية وعناية البرنس دي كوندي

فصاح الجلاد : ـ تعالي يا اليصابات أو نأتي بك قهراً

ـــ قادمة . الوداع أيها الأمين . حقاً لقد اوجبت لي سروراً عظيماً فاشكرك والآن قبل شفتيّ . اعط اختك قبلة الوداع ايها المخلص . الوداع يا اخي

فقبلها باحترام وصعدت وبقي طولان راكعاً ينظر اليها الى أن فرغوا من اعدامها وجاء دوره فوضع رأسه تحت سيف الجلاد وقال بصوت عال : « الله محبة » وقضي عليه

الكتاب الخامس

الفصل التاسع والعشرون

لويس شارل

كان البرنس دي كوندي يتمشى في مقصورته مضطرباً لانه قرر الآن ابعاد الغلام من قصره خوفاً عليه من اعدائه وبعد قليل دخل فتى في الثانية عشرة من عمره حسن الهيئة جميل الطلعة طويل القامة فاكرم البرنس وفادته وضمه اليه مراراً ثم جرى لهما حديث علم منه البرنس ان الفتى لا يزال يذكر ما جرى له من المصائب وصرح له كيف انقذوه فقال انهم بعد ما اخرجوه من سل الغسيل علم ان المركيز دي جارجيز كان متنكراً بملابس الغسالة وانهما لبثا الى المساء فغيرا ملابسهما وركبا عربة الليل بطوله واخبره الماركيز انه ذاهب به الى البرنس وسيقيم في بعض قصوره متنكراً وان لا يذكر اسمه ولقبه لاحد او يعيدونه الى سيمون فاخبره البرنس دي كوندي ان اشد خصومه هم اقاربه وفي مقدمتهم عمه الكونت دي بروفنس الذي يرجو ان يصير ملكا ولذلك فهو لم يبلغه خبر نجاته من السجن واخيراً استدعاه الكونت وسأله عن الغلام الذي يعتني

بتربيته وان بعضهم زعم انه ولي العهد ولكنه ارسل من رآه فلم يجد فيه اقل شبه للملك.

ثم افهمه البرنس ان من مصلحته كتمان امره الى أن تأتي الفرصة الموافقة للمجاهرة بامره والمطالبة بحقوقه وان الاوفق الآن أن يوجد في مكان لا يوجب الظن فيه فيأمن على نفسه وأنه يجب أن يذهب الى (مايانس) وهو حصن على نهر الرين تحتله جنود فرنسا بقيادة الجنرال (كليبر) ثم أفهمه ان كليبر هذا من انصار الملكية قلبياً مع انه يخدم الجمهورية . قال البرنس : — وقد افشيت هذا السر اليه مع رسول مخلص فاتفق معي على أن تكون ابن اخته . وارسل ياوره الى (كوبلنتز) ليذهب بك اليه . ولديّ جميع الاوراق التي تثبت حقيقة امرك وعليها توقيعي وختمي مع شهادات اساتذتك وحراس القصر يوم وصولك

و بعد ان وعده الشاب انه لا يسيء استعمال الاوراق وان يدفعها الى الجنرال كليبر ليعتني بها اعطاه اياها وودعه قائلاً وقد ركع امامه :

— الآن اودعك يا مولاي الملك واعترف انك لويس السابع عشر ووارث العرش الحقيقي واقسم ان لا اعترف بسواك ملكا ما دمت حياً

فقال لويس شارل : — وانا يا برنس دي كوندي اقبل عهدك هذا واذهب الى منفاي

وقبل البرنس يد الشاب ومضى فلما وصل الى مايانس احسن الجنرال كليبر مقابلته ومعاملته وكان يدعوه باسم لويس واكتسب

الشاب محبة القائد فكان ينام معه في غرفة واحدة و يا كل على مائدته و يرافقه في الاستعراض العسكري فكان يدر به و يعلمه الفنون العسكرية وذاع بين المعسكر انه ابن شقيقة القائد وصار محبوباً من الجميع

الفصل الثلاثون

في الشرق

وتوالت الاعوام الى ان كان ١٩ ابريل سنة ١٧٩٨ فسافر الجنرال بونابرت مع اسطوله الى الشرق يرافقه الجنرال كليبر ومعه ابن اخته لويس فقضى زمناً في مصر وسوريا مع الجيش الفرنساوي الى ان قرر الاطباء ان حالته الصحية تستلزم رجوعه الى فرنسا وقرر الطبيب (كورفيشار) ان طقس مصر لا يوافق صحة الشاب فاعترض لويس وسأل الجنرال كليبر لماذا لا يذهب هو ايضاً الى فرنسا فاجابه بما معناه : — ان بونابرت لا يرضى عن رجوعه بل يريد العودة وحده الى فرنسا ليكون وليّ الامر فلا يزاحمه مزاحم

وجهز بونابرت اسباب رحيله الى فرنسا سراً على ان لا يعلم جيشه في مصر بعزمه على السفر الا بعد رحيله وجعل الجنرال كليبر وكيلا عنه في غيابه فذهب هذا الى الجنرال ديساي صديقه الحميم وقد تقرر ان يرافق بونابرت الى فرنسا فاجتمعا في خلوة زمناً طويلا وكان لهما حديث سري ثم عاد الى منزل الجنرال كليبر ودخلا غرفة

الشاب لويس فانحنى الجنرال ديساي امام الشاب فبسط الشاب يده للسلام فقبلها القائد فقال لويس :

— ما هذا ايها الجنرال ؟

— انني اكرم البؤس والماضي . والدمعة التي سقطت على يدك هي خاتم اخلاصي لك وكتماني لسرك واقسم ان اخدمك بدمي واحافظ بحياتي على الاوراق التي دفعها اليّ الجنرال كليبر

ثم ودع لويس الجنرال كليبر وكان وداعهما ابدياً لا لقاء بعده

وعاد بونابرت الى فرنسا وفي ٢٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩ صار القنصل الاول للجمهورية الفرنساوية وفي اواخر سنة ١٨٠٠ وصلت البارجة (النسر) من مصر الى فرنسا تحمل الى الجنرال ديساي رسالة ضخمة ضمنها أوراق ذات قيمة وكمية من النقود والجواهر وضمنها ايضاً رسالة مختومة باسم ياور الجنرال ديساي وهي وصية الجنرال كليبر قائد عموم الجيش الفرنساوي في مصر وكان قد دفعها مع الجواهر وسائر الاوراق الى الجنرال مينو على ان يرسلها بعد وفاته الى الجنرال ديساي وكان كليبر قد قتل في ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ فجعل الشاب لويس وارثاً لثروته فلما اخبره الجنرال ديساي انه أصبح يملك مليوناً من المال اجابه :

— حبذا لو انها مليون جندي استعيد بهم عرشي

— دع عنك هذا الكلام والآن يجب وضع اموالك واوراقك الرسمية لدى رجل قادر على صيانتها ولا ارى افضل من المسيو فوشيه رئيس البوليس

فصاح الشاب : ــ ان فوشه هو الذي وافق على قتل والدي وهو أشد انصار الجمهورية

فقال الجنرال ديساي : ــ انه أوفق رجل للعناية بك وبما لديك فهو يحميك ويصونك واذا كان اليوم خصما لنا فقد يكون في الغد اعظم نصير وأوراقك مأمونة في حوزته (١)

وتوالت الايام وكان النصر حليف بونابرت الى ان انتصر في واقعة مارنجو فوزاً باهراً وفيها قتل الجنرال ديساى وجرح ياوره لويس فعاد الى باريس لا رفيق له ولا نصير فذهب الى فوشه فاحسن هـذا مقابلته وخاطبه بلقب الجلالة واستغفره عما مضى واثنى ثناء عاطراً على مارى انتوانيت فمال اليه لويس ووثق به ووعده ان يستشيره في جميع اموره مشترطاً عليه كتمان سره عن كل انسان فاقسم ان يفعل ثم لما اظهر لويس تخوفه من بونابرت اذا علم حقيقة امره قال له فوشه :

— لا تخف شراً . انني لا ابلغه أمرك . ولكن لئلا يسيء الظن بمقدرتي في رياسة البوليس فانني سأعمد الى الحيلة لانقاذك واخبر القنصل الاول انك قد مت في واقعة مارنجو ثم استحضر ورقة تفيد ان ياور الجنرال ديساى مات متأثراً من جراحه في المستشفى

— ولكن كيف استطيع ان اثبت حقيقة دعواى اذا كنت قد مت ودفنت أولا وثانياً

— تثبت ذلك من اوراقك ومن شهادتي ايضاً في الوقت الموافق فاحرص على الاوراق ولا تتركها ليل نهار . واليك اوراق ثروتك

(١) كلمات الجنرال ديساي . « مذكرات دوق نورماندي » صحيفة ٦١

فقد وضعتها لك في بنك فرنسا وتستطيع سحبها بهذه التحاويل وسأعطيك الآن اسماً جديداً الى ان تعيد اليك فرنسا اسمك الصحيح فيكون اسمك من الآن فصاعداً « بارون دي ريتشموند » وسأجهز الاوراق الرسمية لهذه الغاية ومتى عدت الي غداً اعطيك الاوراق الرسمية الصادرة باسم بارون دي ريتشموند . فلما انصرف لويس تبسم الداهية فوشه وقال في نفسه :

— يا لك من احمق . ان بارون دي ريتشموند لن يكون لويس السابع عشر ولكنه يكون آلة في يدي لأكبح جماح القنصل الاول الراغب في الملك والكونت دي ليل الذي يدعي انه صاحب الارث الشرعي

الفصل الحادي والثلاثون

فوشه

كان القنصل الاول يتمشى في مقصورته مضطربا قلقاً وقد ظهرت على محياه جميع علامات الغضب والتأثر وهو من حين الى آخر يلفظ كلمات كأنها سهام جارحة موجهة الى رجل وقف عند الباب بقرب مكتب حافل بالاوراق . هذا الرجل هو فوشه الذي كان سابقاً رئيس بوليس مدينة باريس فابعده القنصل الاول عن هذا المنصب فاكتفى بوجوده عضواً في مجلس ادارة الجمهورية. جاء فوشه اليوم الى التويلري ليقابل القنصل الاول مقابلة سرية

وما لبث بونابرت أن وقف امام فوشه ورماه بنظرات حادة وصاح به غاضباً :

— انا اعرفك يا فوشه ولا تقدر ان تخدعني بظواهرك وعدم مبالاتك . وستعلم انني لا أخافك ولا أخاف انصارك . انت واهم في انك تخيفني فتحملني على مشترى السر الذي لديك بالثمن الغالي ولكن ستعلم انك مخطىء وانني لا ادفع ثمناً لأمر ربما استطعت الاهتداء اليه بدون معونتك . فاحذر يا تاجر الاسرار . لديك جواسيسك ولكن لدي رجال بوليسي وهم يطلعوني على كل شيء . فقد ذاع انك تراسل قوماً يقيمون خارج فرنسا

— لم أعلم حتى الآن ان الجمهورية تمنع انصارها الأمناء عن ارسال التحارير الى الخارج

— بل هي تمنعهم عن مراسلة خصومها . اسكت يا هذا ودع عنك المراوغة . والزم الصراحة . انك تراسل كونت دي ليل

— انت تعلم ذلك يا حضرة القنصل لأنني تشرفت فعرضت عليكم رسالة من مدعي الملك ارسلها بواسطتي اليكم

— وهي رسالة منكرة . لا معنى لها ولا قيمة . فان كاتبها الأحمق يطلب مني ان أعيده الى فرنسا وان اختار المنصب الذي اريده في حكومته . حقاً انه لاهوج وقد فقد هداه . يريد مني أن اختار لنفسي منصباً في حكومته ! وسأفعل ولكن عند ذلك لا يبقى محل بفرنسا لجماعة البوربون الذين نبذتهم فرنسا كما تنبذ السم الزعاف . ولن يكون لهم مكان فيما بعد في هذه البلاد . لأن فرنسا تكرههم وهي ستقيم لنفسها بناية جديدة من القوة والمجد ولكن لا

محل فيها للبوربون . فاعلم هذا ايها الدساس ولا تشيد لنفسك قصوراً في الهواء . والان أطلب منك ان تعترف بما لديك لأنني سأشكوك انك خائن ومن الحزب الملكي

— مولاي انني لا اتجنب هذه التهم واعتقد ان فرنسا تراقب باهتمام عظيم سير تلك المحاكمة التي ترفع النقاب عن سر عظيم . فتعلم الأمة الفرنساوية بواسطة محاكمتي ان وارث العرش الحقيقي لم يمت في (التامبل) بيد سيمون الاسكاف بل لا يزال حياً وهو الوارث الحقيقي للتاج وهي بشرى يفرح لها الحزب الملكي

فصاح بونابرت غاضبا وقال : — سأبدل فرحهم بكدر وسيعلم جميع اعداء فرنسا ان الحسام في يدي وانني اضرب به خصومها في الخارج وفي الداخل ايضاً . وان فرنسا قلدتني هذا الحسام فانا لا اتركه ولو طالبني بتركه جميع ملوك اوربا بل لو بعث جميع آل بوربون من قبورهم . انا سيف فرنسا الحي فلن يخضع هذا السيف لصولجان بوربوني . وسواء عندي اكان هذا البوربوني يدعو نفسه لويس السابع عشر أو الثامن عشر . فاذكر هذا يافوشه واذكر ايضاً انني اقول وأفعل ولو قامت الدنيا في وجهي

— انا اعلم ذلك ياحضرة القنصل فقد منحك الله لسعادة فرنسا ارادة حديدية وعقلا ناريا ولم يقدر لك أن تزين رأسك باكاليل الغار فقط بل بالتيجان ايضاً

— هذا كلام غير لائق فانني خادم الجمهورية وليس فيها تيجان

— واي رأس أولى بالتاج من رأس القنصل بونابرت الذي جعل جمهورية فرنسا منافسة لشقيقتها في اميركا الشمالية

— انني لا ارتاح الى ان اكون واشنطون فرنسا

— ومع ذلك فانت هو . والفرق بينكما ان واشنطون فرنسا لا يقيم في البيت الابيض الذي بنته الجمهورية بل يقيم في التويلري وقد تناوله بصفته وارث ملوك فرنسا . انك يا حضرة الجنرال قد ورثت ملوك فرنسا ومن جملة هذا الميراث التاج فما بالك تقبل الارث الواحد وترفض الآخر ؟

— دعنا من هذا . أنت تضمر عملا تظنه يقوى على ارادتي وهذه السلطة التي تتوهمها تدعى لويس السابع عشر . لا تهز رأسك . انت الذي قضيت على لويس السادس عشر بالموت تعلم معتوهاً من الناس ان يزعم انه ابنه وخليفته . تريد أن تكفر عن جريمتك في قتل الملك فتوجد من الوهم حقيقة ومن الخيال ملكا

— لا وهم ولا خيال أيها الجنرال فان الملك المنكود الحظ حي و...

— أنت تعترف أخيراً بالسر الذي طالما حاولت كتمانه . وقد تمكنت من حملك على افشاء سرك فلا نجاةِ لك بعد الآن الا متى دفعت الي الذي تريد ان تستعمله آلة لغاياتك

— حتماً لقد تغلبت علي بالحيلة فانت قادر في الحيل مقدرتك في الحروب و بدلا من معارضتك سأكون آلة في يدك اذا انت رضيت بي

— اي اذا انجزت شروطك ؟ فما هي تلك الشروط . ماذا تطلب تكلم بحرية

— أنك يا حضرة القنصل أبعدتني عنك فصرت لا تثق بي وسلبتني منصب وزارة البوليس ودفعته الى خصمي رينيه فآلمني

عملك لانه صيرني في نظر الناس ساقط المقام وتوهموا ان بونابرت يسيء الظن بي . وتوهم خصومك أن اعراضك عني يفيدهم فيكتسبون عدواً لك ولذلك جاءني الرسل من أرباب الدسائس على اختلاف ميولهم من الكونت دي ليل ومن الملكيين في الفاندي ومن متطرفي الجمهوريين وعرضوا عليّ الانضمام اليهم فتظاهرت بالميل اليهم جميعاً وأطلعوني على مقاصدهم وأنا في هذه الساعة حليف الملكيين والجمهوريين في وقت واحد . مهلاً ياسيدي الى أن أنتهي من حديثي . نعم انني تحالفت مع جميع هذه الأحزاب وأنا غيور في خدمتهم فالحزب الاول الجمهوري وهو يكرهك لانك استاثرت بالسلطة . والثاني حزب الملكيين وهم يريدون أن يجلسوا الكونت دي ليل على العرش . والثالث حزب لويس السادس عشر وهم يريدون أن يجلسوا على العرش يتيم التامبل باسم لويس السابع عشر . والغاية الأولى التي يسعون اليها جميعاً هي التخلص من القنصل بونابرت . ولذلك اتفقوا على ما يأتي : يتولى العرش زعيم الحزب الذي يتمكن من قتلك و يتنازل غيره عن مطالبه فاذا تمكن جمهوري من قتلك تسود الجمهوريه فاذا قتلك أحد رجال الملكيين تنازل الحزب الجمهوري عن حقوقه و يرضى أن يؤخذ رأي الامة في هل تريد أن تكون ملكية أو جمهورية . أما أنا فانني صرت عضواً في جميع هذه الجمعيات السرية لأقف على أسرارهم فأدركت غايتي وصرت أستطيع أن ألقي الشقاق بينهم مستعيناً بالحزب الثالث أنصار لويس السابع عشر يتيم التامبل و بواسطة عطفي على هذا الشاب أبعدت عدداً كبيراً من الانصار عن الكونت دي ليل بل

أن بعض الزعماء الذين جاءوا باريس لنصرة لويس الثامن عشر حنوا الركبة والرأس بالامس أمام لويس السابع عشر

— هذا غير صحيح وحديث خرافة يدخل الرعب على الاطفال ولا يهم الرجال . وليس في باريس جمعيات سرية

— أيها الجنرال اذا كان وزير البوليس رينيه قد أبلغك هذا الرأي فهو لا يعرف شيئاً من أحوال منصبه . وأؤكد لك وجود جمعيات سرية في باريس ولا ينبئك مثل خبير فانني عضو رسمي في أربع جمعيات منها

— وكيف صارت أربع جمعيات الآن

— انني أتكلم عن الجمعيات السرية اذ ليس كل جمعية سرية جمعية دسائس والجمعية الرابعة التي اشير اليها الآن لا تستحق ان تدعى جمعية دسائس لانها ترمي الى القتل والثورة ولا تستعين بالخنجر والبندقية

ـ وما اسمها ياترى ؟

ـ اسمها الجمعية البونابرتية . بل اسمح لي ان اقول همساً لان للجدران آذان . انها جمعية الحزب الامبراطوري

— وما تعني بهذا ؟

— اعني يا حضرة الجنرال ان رأسك لم يخلق ليكلل بأكليل الغار فقط بل بالتاج أيضاً . ولا سبيل الى قتل الدسائس الثلاث الا بالواسطة التي ارتأتها الجمعية السرية الرابعة . فاذا شئت ان تذهب مساعي الملكيين والجمهوريين سدى وان تدوسهما بقدميك فان فرنسا تحتاج الى امبراطور

ـ ولعلك تريد ان تجعل لويس السابع عشر امبراطوراً على فرنسا ؟

ــ لا ياحضرة القنصل وانما اريد ان يكون امبراطور فرنسا القنصل بونابرت

فارتجف القنصل واجال بصره في المقصورة التي كانت مقصورة لويس السادس عشر كأنه يريد ان يتأكد انه لم يسمع احد كلمات فوشه الخطيرة وما لبث أن قال :

وهل اعضاء جمعيتك السرية الرابعة كثار العدد ؟

ــ في جملتهم الشعراء والعلماء وبالاكثر الضباط والجنرالية وعددهم يزداد يومياً وعدا انني لحسن الحظ لا ازال عضواً في مجلس الشيوخ فأنا ابذل جهدي لاستمالة اهم الاعضاء الى الانضمام الى جمعيتي السرية الرابعة . واذا تحققت آمالي لا تلبث هذه الجمعية ان تصير علنيـة فيلتمس منك مجلس الامة رسمياً ان تضع حدا لجميع هذه الدسائس وان ترأس فرنسا وتقبل التاج الامبراطوري الذي يقدمه لك المجلس المذكور

وبعد حديث طويل جاهر فوشه بشروطه لخدمة القنصل واهمها ان يعيده لوزارة البوليس

فقال بونابرت : ـ والآن نعود الى الشخص الذي تقول انه ابن لويس السادس عشر . فهل هو خيال ام حقيقة ؟

ــ بل حقيقة وهو موجود فعلاً

فضحك بونابرت مقهقهاً وقال :

هذه حكاية قديمة . كان الجنرال كليبر يصدقها لسلامة طويته . واذكر بعد موته انهم جاءوني برسالة كان قد كتبها اليّ قال فيها ان

الشاب المعروف بابن أخته هو في الحقيقة وارث ملك فرنسا وسألني ان اتولى العناية به . وللحال امرت بالبحث عنه وكان ذلك بعد معركة مارينجو وكان المسيو لويس ياوراً للجنرال ديساي

— نعم كان كذلك الى ان قتل الجنرال

ـ وكان الشاب قد جرح في المعركة ونقل الى المستشفى ومن ذلك الحين انقطعت عني اخباره فلم تفلح مباحثي في البحث عنه . ان ياور الجنرال ديساي حارب بشجاعة وحمل جثة رفيقي فاستحق الترقي واردت ان ارفع رتبته فلم اجده وحسبت انه مات الى ان جئتني الآن بحياته دسيسة يراد منها اعادة لويس السابع عشر الى العرش . اذاً فهذا المدعي لا يزال حياً وفي القوم من يصدق حكايته

— انه يا حضرة الجنرال قليل الكلام ولكن اوراقه وبراهينه افصح من بيانه وتدل على ان دعواه صحيحة

—اود ان ارى هذه الاوراق

— انه حريص عليها فلا يتركها دقيقة علماً منه انها رأس ماله وانها ضمانة حصوله على التاج

— اذا جئتني به فاستولي عليه وعلى اوراقه . اما هو رئيس هذه العصابة من الدساسين ؟

— نعم هو رأس الدسيسة التي اديرها لانني اردت ان اتولى امور جميع تلك العصابات لأكون على بصيرة مما افعل . وقسمت الحزب الملكي الى قسمين وادرك الكونت دي ليل قصدي فهو الآن ألد عدو للشاب اليتيم

— ولكنني أريد البراهين القاطعة التي تمكنني من القبض على اعدائي فهل تستطيع ان تأتيني بها ؟

— ليس الامر صعباً وسيأتي الكلام عنه فيما يجيء أما الآن فاعود الى امر هذا الشاب ياور الجنرال ديساي فانه مخيف ويخشى منه . تقول انك لم تفلح في البحث عنه ولكن ابحاثك هذه جرت في عهد المسيو رينيه اذ سلبني نفوذي ومكانتي لديك . فلو انني كنت وزيراً للبوليس يومئذ لأنبأتك ان الشاب الذي تطلبه ولا تهتدي اليه مقيم هنا في باريس نفسها

— أصحيح ما تقول ؟ هذا الذي يزعم انه لويس السابع عشر مقيم هنا

— انه مقيم حتى الآن في باريس وهو فيها منذ اربع سنوات أي منذ جعلتم المسيو رينيه وزيراً للبوليس

— ورينيه لم يطلعني على شيء من هذا . ولم يعلم بوجود هذا الرجل مع ما في وجوده من الخطر ؟

— ان رينيه يا حضرة الجنرال لا يعترف بوجود جمعيات سرية في فرنسا ويزعم ان جميع الاشقياء الذين حاولوا مراراً الاعتداء عليك انما جاءوا من الخارج فهو بالطبع لا يعرف رؤساء تلك الجمعيات فاطلق لهم الحرية . أما انا فانني اعرفهم وأقسم بشرفي ان الذي يعرف باسم ابن شقيقة كليبر مقيم هنا في باريس . جاءني حال وصوله اليها فدفعت اليه الاوراق التي أرسلها الي الجنرال ديساي فوثق الشاب بي . ثم اكتسبت ثقته ومحبته لما حادثته عن والديه فاعترف لي انه لويس السابع عشر وسألني ان امده برأيي ومعونتي

فوعدته بذلك واظهرت له ميلا وعطفاً ونصحت له اولا ان يعيش متنكراً باسم مستعار وتسهيلا لذلك اعطيته الاسم الذى يتنكر به وهيأت له جميع الاوراق الرسمية اللازمة وفيها ورقة ولادته وتنصيره وزواج والديه ووصية اقاربه

فقال بونابرت بدهشة :

— وجميع هذه الاوراق مزورة!

— في كل مكان من فرنسا يوجد بعض الموظفين الذين يرتاحون الى المال . ولم اكتفِ بتهيئة الاوراق التي تجعله رجلا معتبراً من عائلة كريمة بل زدت على ذلك ورقة رسمية تبين موت المسيو لويس المذكور وانبأته ان سلامته تقتضي ان يكون من الاموات فصادق على رأيي ولذلك حصلت على ورقة من المستشفى العسكرى كاملة الامضاء والختم مآلها ان الكولونيل لويس ياور الجنرال ديساى مات فيها متأثراً من جراحه

فقال بونابرت :

— يا لله . وهل يباع ويشرى كل شيء حتى الموت والحياة

— نعم يا حضرة الجنرال كل شيء . الاخلاص والحب والحياة والموت . انني جعلت ابن ملك فرنسا ميتاً ثم احييته وكل ذلك بقوة المال . ولكن لما وصلتني تذكرة بعثه من الموت كان قد طرأ تغيير على مركزى . فصلت من وزارة البوليس وخلفني فيها المسيو رينيه . فحفظت التذكرة لدي على انني رأيت ان لا سلامة للشاب اذا انا مت فكتبت اليه انني حصلت على الاوراق وانه يعيش اميناً في باريس باسمه الجديد الذى يتنكر به . ووضعت على

هذا التحرير اسمي الكامل وختمي حتى اذا اقتضى الأمر استطاع ان يستعين به على اثبات شخصيته ولو بعد وفاتي

فضحك بونابرت وقال :

— حقاً أنك لخبيث يا فوشه والفرار من قنبلة مدفع اسهل من الفرار من حبائلك . ويحق أن نقول لك ما قالة ملك بروسيا « اللهم انقذني من أصدقائي أما أعدائي فانني أستطيع النجاة من شرهم » فقد اتضح من برهانك أنك جعلت الكولونيل لويس يموت ثم بعثته من قبره باسم آخر

— نعم يا حضره القائد . ان الكولونيل لويس أو بالحري لويس السابع عشر ملك فرنسا الحقيقي هو آلة في يدي وبها أضع حداً مانعاً لجميع الاحزاب وفي وسعي أن أستعمله أو لا أستعمله حسب ارادتي . أما الآن فالذي أنويه ليس فقط ادخال الشقاق والكره الى الحزب الملكي بل ايضاً ان أستميل عدداً كبيراً من الجمهوريين الى الأخذ بناصر هذا الأمير الشاب المنكود الحظ

— وبعد ذلك تستعمل هذه الواسطة لتخويف وارهاب الحزب الرابع . أي الحزب البونابرتي . ولكنك أخطأت يافوشه . انك تجاوزت الحد في حيلتك انت لا ترهبني واذا اتفق أن الامة الفرنسوية عرضت عليّ تاج الملك واتفق انني قبلت ما تعرضه الامة عليّ فانني اذ ذاك أدوس بقدمي رقاب جميع العصاة والمدعين وأسحقهم دفعة واحدة . فلا أريد شيئاً من الاحزاب والفرق السياسية . بل أريد أن ألاشيها فلا تكون في فرنسا جمعيات سرية ومن هذه الساعة استعمل شدة القانون ضد

كل ساع دساس مهما تكن رتبته . لا تنس هذا يا فوشه . فانني أنوي ملاشاة جميع الاحزاب . فمتى دفعت الزعماء الى يدي لاعاقبهم على خياناتهم لفرنسا وليس لانتقم منهم فانني لا أحفل بامثالهم . متى سهلت لي ملاشاتهم دفعة واحده اذ ذاك أجعلك رئيساً للبوليس واذ ذاك يجعلك الامبراطور المقبل دوقاً . . .

— سأثق بوعدك أيها الجنرال ولا ريب عندي في أنني سأكون رئيساً للبوليس وأميراً من أمراء الامبراطورية . سنلاشي جميع الاحزاب والدسائس

— ونلاشي أيضاً المسيو لويس . فهو شخص لا أرضى عنه ولا أحتمله . وما دام حياً يبقى في ثوب الامبراطورية حشرة مؤذية ولا يجب على المرء أن يبقي في ثوبه الحشرات ولا بد من ملاشاة المسيو لويس هذا . وأرجو أن يكون قد توغل في الدسيسة فلا يستطيع النجاة

— لقد قلت لك فيما مضى ان أنصاره حيوه اول أمس في الاجتماع السري تحية الملك ولا أنكر ان هذا الفتى المسكين عارضهم معارضة شديدة وأبى قبول تلك التحية وذلك التكريم

— وسيعاقب على ذلك اذ لا بد من ان توجد عبرة للآخرين فليكن لويس هذا عبرة لمن يعتبر وضحية عن الآخرين . انه زعيم عصابة ويجب سحقه فاذا قطعت الرأس تلاشت الاعضاء من نفسها ثم لا يبكي عليه الا الذين تغرهم خرافات العجائز وأحاديث النساء فلا يأسف على موته احد ولكنه يكون عبرة لسواه . فوجه اهتمامك الى هذا الامر يا فوشه وحرك جميع العوامل الجهنمية

والدسائس القوية التي لديك فنضع حداً لهذه الدسيسة

— لك ما تريد أيها القائد ولكن ينقصنا شيء واحد لاتمام الامر على ما نشاء وهو ان اكون انا رئيساً للبوليس فأكون مالكاً للسلطة التي تحرك تلك العوامل الناجعة

— لقد افهمتك فيما تقدم انني اجعلك وزيراً للبوليس متى قدمت لي الأدلة القاطعة على ان هذه الدسائس حقيقية لا من مخترعات تصوراتك

— الآن وقد اتفقنا فانني لا أتأخر عن تقديم البراهين المطلوبة. قلت لك قبلا ان الحزب الجمهوري والحزب الملكي اتفقا على قتلك وأزيدك الآن انهم اختاروا ٥٠ رجلاً بالقرعة في بلدان أجنبية ليحضروا الى باريس ويفتكوا بك . وقد وصل هؤلاء جميعهم الى باريس وأمس اجتمع زعيمهم بزعماء الدسائس هنا

فقال بونابرت بلهجة الوعيد :

— تأمل يا فوشه فيما تقول . انك تعرض رأسك للسقوط . واذا علمت ان هؤلاء الرجال من تخيلاتك وأوهامك فانك تكفر عن خداعك بحياتك

— لقد وصل هؤلاء الرجال الى باريس أول أمس . جاءوها من طرق مختلفة كأنهم من عامة السياح . وأمس اجتمعوا لاول مرة مع زعيم الحزب الجمهوري

— ومن هو هذا الزعيم ؟ اذكر اسمه أو تكون كاذباً محتالاً

— هو الجنرال مورو

فصاح بونابرت صيحة مخيفة وامتقع لون وجهه وظهرت عليه

مظاهر الغضب حتى خافه فوشه فقال بونابرت :

— مورو ؟ وهل يكون مورو خائناً ؟ وشريكا للقتلة الذين ارسلهم الحزب الملكي اقتلي ؟ انا اعلم انه كان عدوي ولكنني لم اعلم ان عداءه يجعله مجرماً

و بعد ان تمشى قليلا وقف امام فوشه وقال بحدة :

— ألا تزال مصرا على القول ان مورو من زعماء الدساسين ؟

— نعم ايها الجنرال

— وهؤلاء الرجال الذين ارسلهم الحزب الملكي يقيمون الآن في باريس ؟

— نعم . و يرأسهم جورج و بيشجرو

فرفع بونابرت يده مهدداً وقال :

— اقسم بالله ان اشنقك اذا كانت افاداتك كاذبة

— وانا اقسم بالله انني صادق فقد جئتك اليوم لأريك مقدرتي بالنسبة الى ضعف رينيه . وانتظرت ريثما تمت جميع هذه الدسائس وقد حان الوقت للافصاح عن الحقائق فاقول صراحة يجب ان تعمل لأن الخطر عظيم

وكان بونابرت قد استلقى على كرسيه وهو يرتجف . وجرياً على عادته في ساعات الانفعال تناول المطوى وأخذ ينقر على مكتبه واذا بالباب قد فتح ودخل الحاجب فقال :

— ان المستشار ريال حضر ثانية وهو يلح في طلب مقابلتكم

فنادى بونابرت المستشار ريال بصوت عال فدخل هذا وهو مضطرب فقال القنصل :

— ما وراءك يا ريال ؟ هل حادثت الرجل المحكوم عليه ؟

— نعم يا حضرة القائد

— هل صدق ظني ان المدعو الدكتور كويرول انما زعم ان لديه ما يبوح به من الاسرار التماساً لأطالة حياته برهة قصيرة ؟ وانه دس السم لزوجته رغبة في التزوج من عشيقته

فقال فوشه :

— انا أعرف كويرول واعلم ايضاً ان زوجته هي التي تناولت السم من تلقاء نفسها فهو غير مجرم

— وما هو اذاً يا حضرة النبي العالم بكل شيء ؟

— هو احد ذوي الدسائس

فتحول بونابرت الى ريال وقال :

— ما الذي علمته انت ؟ وماذا قال لك الرجل ؟

— اقسم لي انه بريء من تسميم زوجته ولكنه اعترف انه احد اعضاء جمعية سرية غرضها الفتك بالجنرال بونابرت ويؤكد حصول الاتحاد بين الحزبين الملكي والجمهوري وان ٥٠ رسولا من قبل الكونت دي ليل ودوق دانجين برئاسة جورج وبيشجرو قد انسلوا الى باريس وانهم قابلوا امس الجنرال مورو والرجل الذى يدعي انه لويس السابع عشر المختبيء في باريس وان هؤلاء الرجال يطوفون الآن شوارع العاصمة يراقبون التويلري ويترقبون الفرص لقتل القنصل الاول

فحول بونابرت نظره من ريال الى فوشه وكان هذا يكتم علامات الفوز والسرور بصدق اقواله ثم مشى الى الباب المؤدي

الى غرفة الانتظار فدفعه بقدمه وصاح بصوت مخيف :

— يا مورات !

وللحال اقبل الجنرال مورات وهو يومئذ محافظ باريس فقال بونابرت بلهجة القائد الذى يصدر الاوامر في ساحة القتال :

— اصدر الاوامر في الحال يا مورات ان تقفل جميع ابواب باريس وان لا يسمح لأجنبي بالخروج منها الى ان تصدر اليك اوامر جديدة . ثم عد اليّ بعد ساعة لأعطيك منشوراً تذيله بتوقيعك وتطبعه وتعلقه على شوارع المدينة . افعل كل هذا واذهب

ثم نادى ياوره الاول دوروك وقال له :

— خذ ١٢ جندياً وابحثوا عن الجنرال مورو واقبضوا عليه حيثما تجدونه

فذعر دوروك واضطرب وقال له :

— ايها الجنرال ارجو . . .

فصاح به بونابرت :

— لا تعترض . وعليك فقط ان تصدع بالاوامر

فلما مضى تحول بونابرت الى ريال وقال له :

— عد الى السجن وخذ للمحكوم عليه الامر بالعفو عنه واحضره اليّ هنا لأسمع اقواله بنفسي

وبقي بونابرت وفوشه وحدهما . فقال القنصل :

— لقد توفرت البراهين يا فوشه والآن صدقت اقوالك . متى اردنا ان نصطاد الذئاب فانت خير صياد . فلنبدأ من الآن . ومن هذه الساعة اجعلك رئيساً للبوليس السري . وأول ما يجب

عليك اتمامه بعد تولي الرئاسة ان تختم هذه الحادثة وتساعدني على تمزيق هذه الاحبولة القتالة ويكون جزاؤك أن تعين وزيراً للبوليس [١] ومتى انجزت ما تعهدت به أفي انا بوعدى

— انك الآن قد قبضت على الجنرال مورو . وأعدك بشرفي ان اقبض بعد ساعات قليلة على بيشيجرو وجورج

— ولكنك نسيت الشخص الرئيسي والأهم . نسيت خيال الملكية المائتة . المدعو لويس السابع عشر . مهلا . . . لا بد لي من هذا الرجل . أريد ان اجرد هذا الثعبان الملكي من انيابه السامة فاحضره اليَّ . ان آلهة الجمهورية ناقمة تطلب ذبيحة ملكية ليسكن غضبها . ادفع هذا الدعي الى يدى أو تكون العاقبة وخيمة . اذهب الآن ونصيحتي لك ان لا تدع الشمس تغرب حتى تاتيني بخبر مآله ان قد قبض على هذا الملك الموهوم او تغرب شمس سعادتك . اذهب واخرج من طريق الدهليز الصغير فالباب السري الذى لا تجهله . اذهب

فلم يجرأ فوشه على معارضة هذا الامر الصريح وتحول برشاقة الى الستارة المؤدية الى الغرفة الداخلية ومنها الى باب لا يعرف كيف يفتحه الا الذين اطلعوا على سره وهو يؤدي الى السرداب الصغير

ولكن ما كاد فوشه يصل الى الغرفة المذكورة حتى شعر بيد قد وضعت على ذراعه وسمع صوت امرأة تقول همساً

— يجب أن أحادثك الآن تعال من هنا . وجرته تلك اليد الى

---

(١) تعين فوشه رئيساً للبوليس في يونيو سنة ١٨٠٤

الجدار واذا بباب سري قد فتح وسمع الصوت النسائي يقول :
— ٤ درجات . انتبه

الفصل الثاني والثلاثون

جوزفين

لم يتردد فوشه بل تبع دليله الى السلم المظلم لأنه عرف صوت المرأة وأدرك انها جوزفين زوجة القنصل الاول

ولما انتهيا من السلالم المظلمة وصلا الى غرفة مظلمة كالتي عند باب مقصورة القنصل ومنها خرجا الى مقصورة جوزفين فقالت بلهجة المتوسل :

— ارجو انك لا تذكر هذه الطريق السرية لبونابرت فانه يجهلها وقد أمرت بصنعها اذ كان في بولون في العام الماضي فهل تقسم ان تحفظ سري هذا

— نعم يا سيدتي

— ويعلم الله انني لم اوجد هذه الطريق السرية عبثاً ولكن يجب احياناً ان اقف على ما هو جار حتى اذا علمت ان الجنرال غاضب متأثر اسرع فاحول غضبه وأمنع الاذى . ومنذ فتحت هذه الطريق قد منعت كثيراً من النكبات اذ سمعت ما دار من الحديث بين بونابرت وآخرين . وها انا اليوم قد سمعت اموراً مدهشة محزنة . ولا ريب عندي ان الله تعالى دفعني برحمته الى

الاصغاء لما دار بينك و بين بونابرت . وقد كنت معه لما أبلغوه خبر قدومك لمقابلته فاوجست خيفة من مجيئك وقد سمعت كل كلمة واعلم ان حياة زوجي في خطر وان ٥٠ خنجراً تهدده . لعمري ان هذا الحزن الدائم على سلامته يؤدي الى موتي فانني قلقة مضطربة دائماً . وقد تلاشت سعادتنا منذ هجرنا منزلنا الصغير لنقيم في التويلري . فلماذا فعلنا ذلك ? لماذا تحولنا عن منزلنا الصغير في لوكسمبرج ? ولماذا اغرونا على الاقامة في قصر الملوك ?

— لأنه يجدر بأعظم رجل في فرنسا ان يقيم حيث اقام ملوكها

— نعم . نعم . انا اعلم هذه الألاعيب الكلامية والحيل اللفظية التي اثرت بها في عقل بونابرت واغريته بالاطراء . انك ستحمل عقوبة ما قد يحل بنا من النكبات . لقد ملأت رأسه بمسكرات المدح والاطراء وانت تدس في دمه صباح مساء ذلك السم الحلو المذاق الذي من شأنه ان يقتل سعادتنا و يلاشي معيشتنا الهادئة . لقد كان بونابرت لطيفاً بشوش الوجه سعيداً وكان قانعاً بالاكاليل التي توجت رأسه بها انتصاراته وفتوحاته ولكنك لبثت تهمس في اذنه ان التاج يزيد تلك الاكاليل بهاء ومجداً . فايقظت باقوالك ما كان كامناً في اعماق قلبه وما كنت اسكته بقبلاتي و يدي واذا بك تثير انانيته وتفسد عليّ عملي . حقاً يا فوشه انك شرير قاس ولا رحمة عندك ولا حنان . اكرهكم جميعاً لأنكم تقتلون حبيبي بونابرت

وكانت جوزفين تتكلم بصوت منخفض وانفاس تتردد والدموع تبلل وجهها الجميل وجسمها يرتجف لشدة انفعالها ثم

ما لبثت ان جلست على ديوان هنالك وسترت وجهها بيديها وقد لمعت في اصابعها الخواتم الثمينة فاجابها فوشه :

— انك لا تنصفين يا سيدتي . واذا كنت قد سمعت حديثي مع القنصل الاول فلا يخفى عليك أن الغرض الاساسي لزيارتي انما كان السعي وراء انقاذه من الذين يحاولون قتله والاهتمام بما يضمن سلامته

— وفي الوقت نفسه كان الغرض من زيارتك ان تلقي في سمعه امر التاج الامبراطوري . انا اعلم ذلك . وقد روجت فكرتك هذه من خلال الكلام عن القتلة والخناجر . تريد ان يكون امبراطوراً لتصير اميراً أو دوقاً . انني ارى وادرك كل ذلك ولا استطيع منعه لأنه اصبح لا يصغي لي ولا يحفل بتوسلات صديقته الصادقة جوزفين . وأصبح كثير الاهتمام بالمادحين الغشاشين ثم لا يلبث ان يضع على رأسه تاجا فيكمل تعاستنا . نعم . نعم ان هذا التاج الامبراطوري سيؤدي بنا الى الدمار والسقوط . فقد قيل لي وانا شابة انني سأصير امبراطورة وأن امبراطوريتي لا يطول زمانها . ومع ذلك فانني اريد أن اعيش وان اكون سعيدة

فقال فوشه باسماً

— سيكون لك ما تريدين يا سيدتي . فان لبس التاج الامبراطوري حسن . وراسك الجميل جدير به

فصاحت به غاضبة :

— لا . لا . دع عنك اغرائي . يكفيني أن أكون زوجة محبوبة وسعيدة . ولا اريد تاجاً . ان الرؤوس المتوجة التي

اقامت في التو يلري كان نصيبها الهلاك ولآلىء تيجانهم تحولت الى دموع . ولكن ماذا ينفع ان اقول لك . كل هذا يذهب سدى. على انني ما دعوتك الآن لمثل هذا الحديث بل لغرض آخر يختلف عنه كثيراً . ارعني سمعك يافوشه . أنا لا أستطيع ان أمنع بونابرت عن ان يصير امبراطوراً ولكنني لا أسمح لك ان تجعله قاتلا مجرماً ولا أطيق ذلك وأقسم بالله والقديسين انك لا تفعل

— انا لا أفهم ما تقولين ياسيدتي . ولا الى أي غرض تشيرين

— بل تفهم كل شيء وتعلم انني اشير الى الملك لويس السابع عشر

— تريدين الاشارة الى المدعي الغشاش الذي يزعم انه يتيم « التامبل »

— بل هو هو بذاته يا فوشه . انا أعلم بذلك علم اليقين وادري تاريخ فراره من سجنه . فقد كنت يومئذ سجينة مع طولان صديق الملكة الأمين ولما كان يعلم اخلاصي لماري انتوانيت التاعسة اطلعني على سره وكيف فر ولي العهد من سجنه . ثم لما أطلق سراحي علمت من (تاليان) و (باراس) ما يؤيد رواية (طولان) وأخبراني ان الغلام مقيم في مكان خفي بمساعدة البرنس دي كوندى. كل هذا عرفته سابقاً وعرفت ايضاً من هو ياور الجنرال كليبر . وقد سألت عنه بعد واقعة مارينجوا ولما أخبرني الرسل ان الملك الشاب قد مات بكيته ولبست السواد عليه وصليت لأجله . والآن وقد علمت ان ابن مليكتي الجميلة لا يزال حياً هل أسمح بموته ميتة خائن ؟ لا . لا . هذا لا يكون . أقول لك يافوشه انني لا أسمح بذلك ولا احتمله ولا أصبر عليه . ولا أسمح ان يذهب الشاب

التاعس فريسة . يجب ان تنقذه وهو ما أطلبه منك بل ما أريده ايضا

فقال فوشه بدهشة :

— أنا ؟ ذلك مستحيل يا سيدتي كما لا تجهلين . لانك سمعت حديثي مع القنصل . وقد قال بصراحة : « ان الجمهورية تطلب فريسة ملكية » فان لم تكن تلك الفريسة المدعو الملك لويس فلتكن دوق دانجين اذ لا بد من فريسة لارهاب الملكيين واعادة الراحة الى نصابها

— ولكنني لا أسمح لك ان تستفيد من الذبائح البشرية . والجمهورية لا تكون صنماً حديدياً ناريا يلتهم الناس كما كانت في عهد الغيلوتين . يجب عليك ان تنقذ ابن الملكة ماري انوانيت ولا بد أن تفعل . واريد انا ان اعيش بضمير مرتاح فأكون في مستقبل حياتي أسعد مني الآن

— ان الذي تطلبينه مستحيل يا سيدتي وقد سمعت بأذنيك ما قاله القنصل لي ان شمس سعادتي تغيب اذا لم اضع في السجن قبل غروب شمس هذا النهار الشاب لويس

— وانا قلت لك يا فوشه انك اذا فعلت ذلك ـ اذا صرت قاتلا سفاحاً مرة أخرى ـ اكون عدوة لك مدى حياتك . وانتقم في شخصك لموت الملكة وابنها واقتفي خطواتك بحقدي وبغضي . ويتبعك انتقامي كالظل . فلا يهدأ لي بال الا بعد ان اسقطك الى الحضيض . وانت تعلم ان بونابرت يحبني وان نفوذي عليه عظيم وان ما اريده ادركه في آخر الأمر بتوسلاتي ودموعي ودلالي . فلا تحرجني يا فوشه . ولا تجعلني خصمك الى الأبد

انقذ ابن الملك الذى ساعدت على قتله واسترض روح الوالدين بمساعدة الابن . واذكر يا فوشه اننا الآن في مقصورة الملكة . طالما اقامت فيها وضمت الى صدرها ولدها وسألت الله ان يباركه . نعم يا فوشه ان روح مارى انتوانيت معنا الآن . وهي تعلم اذا انت حفظت حياة ولدها . ان مارى انتوانيت تشكوك عند عرش الله وتسأله تعالى ان لا يرحمك اذا انت لم ترحم ولدها . فبأسم الملكة يا فوشه . وفيما انا جاثية أمامك أتوسل اليك ان تنقذ ولدها

وجثت جوزفين امام فوشه ودموعها تجرى على وجنتيها واخذت تتوسل اليه فتأثر كثيراً من التذكارات التي ايقظتها جوزفين باقوالها فانحنى يريد انهاضها فأبت وكانت تبكي وتتوعد وتتوسل الى ان رقّ قلبه وتأثر او لعله اراد ان يستبقي لنفسه رضى زوجة الامبراطور العتيد فقال :

— انهضي يا سيدتي . أي انسان يستطيع مقاومة ارادتك طالما ان بونابرت نفسه لا يستطيع ذلك . سأنقذ الشاب كيف كانت العواقب

فنهضت كالغزال واستولى عليها السرور فطوقت عنق فوشه بذراعيها الجميلتين ورسمت على وجهه قبلة وقالت :

— يافوشه انني اعطيك هذه القبلة باسم الملكة مارى انتوانيت. انها قبلة الرضى والغفران والبركة . انت تقسم ان تنقذه ؟

— اقسم ان افعل ياسيدتي

— وانا اقسم ايضاً انني حالما يتم انقاذه وتضمن سلامته ويتلاشى غضب بونابرت اعترف لزوجي بما جرى واصور له الحادثة في

شكل يحمله على الرضى بل يدفعه الى الثناء عليك . والآن فكيف تنوى ان تنقذه ؟

— لا استطيع ان انقذه الا بمساعدتك

— انا رهينة اشارتك فماذا تريد ؟

— يجب ان تكتبي الى لويس رسالة بخط يدك وتستحلفيه باسم والدته ان يهرب لينجو من غضب القنصل الاول وان يهجر اوربا

— يا لك من داهية يا فوشه . انت تريد ان يكون لديك شاهد من خط يدي تستفيد منه لدى بونابرت في ساعة الحاجة وعند الاضطرار . لا بأس سأكتب اليه ما تريد وأسرعت الى مكتبها فكتبت الرسالة ودفعتها الى فوشه قائلة :

— اقرأ . ففي رسالتي ما يلزم . أليس كذلك ؟

— نعم يا سيدتي . وقد جعلت رسالتك رقيقة مؤثرة فلا يلبث لويس ان يتأثر و يعمل برأيك

ثم طوت الرسالة ووضعتها في ظرف وقالت :

— وكيف اكتب العنوان ؟

— باسم الملك لويس السابع عشر

فكتبت العنوان المذكور ودفعت الرسالة الى فوشه قائلة :

— خذها . انها حجتك في ساعة الحاجة . ولزيادة طمأنينتك أرجوك أن تحفظ رسالتي هذه لديك فلا توصلها الى لويس لأنني افضل ان ابلغه ما أريد أن أقوله شفاها

— كيف ذلك ؟ أتريدين أن ...

— اريد ان اخاطب الملك . وأن التمس منه العفو عني وعن بونابرت . كفى لا تعارضني . فقد قررت ان اقابلة بنفسي . اريد أن أراه

— ولكنه لا يستطيع المجيء الى هنا . لا يمكن ان يدخل الى عرين الاسد

— لا ليس هنا . ولكنني أذهب اليه

— أنت هازلة ياسيدتي وهذا مستحيل . انت زوجة القنصل الأول تذهبين . .

— أريد ان أقوم بواجب اخلاص وشكر . فانني لا أزال اشعر في قلبي انني من رعايا المملكة . دعني افعل ما أريد . ارعني سمعك . هذه عربتي أمام الباب . وكنت أنوي الذهاب لزيارة مدام تاليان وأما الآن فقد عدلت عن تلك الزيارة . واريد ان استبدلها بفسحة حتى اذا وصلت الى غابة بولونيا استوقف العربة وأصرفها وأعود على قدمي . اما انت فتنتظرني هناك في عربة عادية . وتأخذني الى الملك

— لك ماتريدين . سأصدع بأمرك ياسيدتي . وانما ارجوك التعجيل فعليّ واجبات كثيرة اليوم . وسأغتنم الفرصة حتى مقابلتك لأستحصل للشاب تذاكر السفر اللازمة . ولكن يجب ان تساعديه للخروج من المدينة اذ لا تجهلين ان جميع ابوابها مقفلة بأمر القنصل الأول

— سأقول لبونابرت انني وقد اقفلت أبواب المدينة صرت

اكره الاقامة فيها ولذلك سأركب عربتي للنزهة في (سان كلو)
واذ ذاك يركب لويس عربة اخرى و يتبعني . واذا ابدى الحرس
معارضة اصدر اليه امرى ان لا يفعل . والآن سر بنا كل الى عمله

* * *

بعد مضي ساعة على ما تقدم صرفت جوزفين عربتها وموكبها
وعادت فركبت عربة اجرة كانت تنتظرها عند الفسقية في غابة
بولونيا واستقبلها فوشه هناك معتذراً عن سوء حال العربة التي اعدها
لزوجة القنصل الأول

اما جوزفين فانها تبسمت وقالت :

— لقد مرت بي ايام كنت اسر وافتخر بالركوب في مثل هذه
المركبة . ايام اضطررت الى المشي على قدمي في شوارع باريس على
كثرة الوحول فيها يومئذ . لا بأس . العربة موافقة فان الايام
الحاضرة بنعيمها لم تحملني على الزهو والكبرياء لانني اذكر ايامي
الماضية ولا انساها . والآن فالى اين نذهب واين يقيم الملك الشاب

— انك سائرة بعد امرك الى منزلي حيث ينتظر الشاب لانه
ليس بعد الآن اميناً على سلامته في منزله لانني جعلت افراد
البوليس السري يحدقون بالمكان الذي يقيم فيه ولديهم الاوامر
الصريحة ان يقبضوا عليه حال رجوعه . ومعلوم انه لا يعود الى
ذلك المنزل و يسهل عليَّ ان ادعي انه علم بالخطر الذى يتهدده
فاركن الى الفرار . وها نحن قد وصلنا فاذا ازلت النقاب على
وجهك لا يعرف الناس ان اجمل سيدة في باريس قد شرفت
منزلي بزيارتها

فلم تجب جوزفين على هذا الاطراء ولكنها انزلت نقابها واسرعت فدخلت منزل فوشه

وفيما هي على السلم همست في أذن فوشه قائلة :

— انني اشعر بخفقان قلبي الآن كما شعرت بخفقانه يوم ذهبت الى التويلري لاتشرف بمقابلة الملكة ماري انتوانيت . وهي اول مرة خاطبت فيها ملكة فرنسا

— والآن يا سيدتي تخاطبين ملك فرنسا

— وهل يعلم من انا ؟

— لا يا سيدتي فقد تركت الامر لك وها قد وصلنا الى القاعة وهو فيها

— مهلا يا فوشه . دعني اقف قليلا لاستجمع قواي لأن قلبي يخفق . مهلا . والآن افتح الباب

ودخلا القاعة الكبرى فوقفت جوزفين عند الباب و بينما هي تنزع قبعتها بسرعة وترفع نقابها وتدفعهما الى فوشه حولت بصرها الى الشاب الواقف عند النافذة وهو مكتوف اليدين فرأت في وقوفه وحاله وسكونه وزرقة عينيه اعظم شبه للصور التي تمثل لويس السادس عشر في صباه فلم تمالك ان صاحت صيحة الدهشة والاستغراب واسرعت اليه فاقترب هو اليها وانحنى امام هذه السيدة الجميلة وقال :

— سيدتي : لا ريب انك السيدة التي سألني المسيو فوشه ان انتظرها هنا

فاجابت بصوت مرتجف والدموع تجري من عينيها لدى تذكارات الماضي :

— نعم أنا هي . لقد جئت لأراك ولآتيك بتحيات الرجل الذي احببته واكرمك ومات وهو يدعو لك

فامتقع لون الشاب وقال :

— من تعنين يا سيدتي

— لقد دعاه الناس باسم «طولان» وأما الملكة ماري انتوانيت فانها دعته « الأمين »

فقال لويس بلهجة الحزين :

— اذاً لقد مات الأمين ؟ مات منقذي الذي تمكن بامانته وشجاعته من انقاذي من سجني المخيف ؟ آه يا سيدتي انك تعيدين الى خاطري تذكارات مؤلمة

فتحولت جوزفين الى فوشه ونظرت اليه كانها تقول « أرأيت انه امين وليس خائناً ولا دعياً ؟ »

ثم تحولت الى الشاب وقالت :

— أما عرفت قبل الآن بموت طولان ؟

— وكيف يمكن ان اعلم بموته. فقد نقلوني يومئذ الى قلعة منفردة حيث بقيت سنوات ثم ذهبت الى جرمانيا ومن ذلك الحين ما برحت مقيما في البلدان الاجنبية ومنذ عودتي الى باريس حاولت ان اعلم شيئاً عنه فلم اجد الى ذلك سبيلا . فكنت اعلل النفس بالآمال واحسب انه ذهب الى اميركا لأنه كان ينوي السفر اليها كما

روى لي يومئذ الرجل الآخر الذي ساعد في انقاذي من اسري

فقالت جوزفين :

— لقد كان الرجل الآخر الذي تشير اليه البارون دي جارجيز وكان الغلام الذي وضع في محلك في السجن . . .

— كان ابن الكونت دى فرونيه

فصاحت جوزفين بفوشه

— انه هو يا فوشه . لا ريب في ذلك الان . انه ابن ملكتي الشريفة التاعسة مارى انتوانيت

ثم تحولت الى لويس وقالت :

— آه يا مولاى . دعني اعبر عن اكرامي لك كما يليق بالعبد وهو في حضرة مولاه الملك . مولاى . انني اجثو امامك باحترام ولا اتأخر من سفك حياتي في دموعي و بكل دمعة منها التمس منك العفو عن فرنسا والمغفرة لنا جميعاً

وفعلا جثت امامه ورفعت بصرها من خلال دموعها الى الشاب الواقف أمامها وقد تولته الحيرة والدهشة ثم ما لبث ان أسرع وحاول أن ينهضها فقالت :

— لا يا مولاى . لا انهض من مكاني الا بعد ان تغفر لي ولنا جميعاً

— وكيف اغفر لك وعن أى ذنب ؟ وتحول الى فوشه فقال :

— يا مسيو فوشه : من هي هذه السيدة التي تعرفني وتعرف تاريخي وتأتيني بالاخبار عن الامين ؟ وعن أى ذنب هي تستغفر ؟ ومن هي ؟ صرح باسمها

فاقترب فوشه وقال :

— ايها السيد انها . . .

فقاطعته جوزفين قائلة :

— لا تفعل يا فوشه . سأخبره انا عن نفسي

وتحولت الى لويس فقالت :

— مولاى . لما كانت والدتك الجليلة الجميلة مقيمة في فرسايل تشرفت بمقابلتها في الحفلات الكبرى والصغرى . ففي غضون حكم الرعب إذ كانت الملكة قد هجرت فرسايل والتريانون واقامت في التويلرى ذهبت ذات يوم لأتشرف بمقابلتها . . .

فقال لويس :— يظهر من هذا ايتها السيدة انك كنت مخلصة وشجاعة إذ لم يجسر يومئذ على الذهاب الى التويلرى الا الأمناء والشجعان. تكلمي . سيرى في حديثك . قلت انك ذهبت لمقابلة الملكة ولا شك انها قابلتك واخذوك الى الصالون الصغير الأصغر

لا يا مولاى لم تكن الملكة هناك بل كانت في مقصورة الموسيقى ولما كانت الأصول غير مرعية بتدقيق يومئذ سمحوا لي بمرافقة ماركيزة طورزيل الى مقصورة الموسيقى . فلم تشعر الملكة بدخولنا لأنها كانت تغني . اما انا فلبثت واقفة عند الباب اتأمل الصورة التي تجلت امامي . رأيت الملكة في ثوب ابيض بسيط وقد سترت شعرها الجميل وعليه قليل من البودرة بقبعة صغيرة سوداء مطرزة وجلست بجانبها اخت ولي العهد عاكفة على التطريز وبالقرب منها على كرسي صغير جلس غلام في الخامسة من عمره

جماله بارع وشعره الذهبي مسترسل وهو كالملاك . وقد اعتمد بيديه على ساعدى الكرسي محدقاً بالملكة لا يتحول عن النظر اليها والانشغال بالعطف على والدته . وكانت الملكة تغني ولا يزال صدى صوتها يرن في قلبي . كانت تغني الدور الآتي :

Dors, mon enfants, clos ta paupière,
Tes cris me déchirent le cœur :
Dors, mon enfant, ta pauvre mère.
A bien assez de sa dol douleur. (١)

و بينما هي تغني حولت رأسها الى ولدها الذى كان يصغي لصوت والدته فقالت اخته : « اظن لويس شارل قد نام » فانتبه الصبي وصبغ الاحمرار وجهه وقال :

— لا يا تريزا . كيف يقدر الانسان ان ينام بينما والدتي الملكة تغني

فانحنت الملكة اليه وقبلته في جبهته قبلة طويلة وسقطت دمعة من عينها على شعره الذهبي . وقد رأيت تلك الدمعة فترقرق الدمع في عينيّ ولم أعالك الامتناع عن البكاء فخرجت من المقصورة لأنشف دموعي واسكن روعي . مولاي انني أراك الآن أمامي كما رأيتك يومئذ وأرى الملكة الحسناء وأولادها من حولها . وحالي الآن حالي في ذلك الزمان — لا أملك الامتناع عن البكاء

فستر لويس وجهه بيديه وقال بصوت خافت :

— وأنا ... يالله وانا

وتأثر فوشه نفسه وساد السكوت طويلا . فلم يسمع الا تنهدات الشاب وزفراته وهو يبكي بكاءً شديداً فكانت الدموع

(١) كتاب ماري انتوانيت الكتاب الخامس فصل ٤ صحيفة ٥٥٢

تتدفق من خلال اصابعها التي ستر بها وجهه . أخيراً قالت جوزفين :

— مولاي . بحرمة تذكار تلك الساعة استغفرك الآن عن ذنبي لانني اقيم في المقاصير التي كانت تقيم فيها الملكة ماري انتوانيت . وما كنت اريد الاقامة فيها . وانما فعلت مكرهة رغما عن حزني وتألمي . صدقني يا مولاي واغفر لي اضطراري الى الى الاقامة في قصر الملوك

فرفع يده عن وجهه وتفرس فيها ملياً وقال :

— انت تقيمين في التويلري ؟ اذاً من تكونين ايتها السيدة

— مولاي أنا المعروفة سابقاً باسم فيكونتة بوهارنيه اما الآن فانني . . . .

فصاح الشاب مذعوراً وقد ابتعد عنها :

— زوجة القنصل الاول ؟ . . . زوجة الرجل الذي يتأثرني وقد افادني فوشه انه يريد القضاء على حياتي ؟

— مولاى . اغفر له . ما هو بالرجل الشرير القاسي ولكن الأحوال اضطرته الى ما يفعله . والظاهر ان الله تعالى اختاره ليعيد بسيفه وروحه المجيدة الأمن والسعادة لهذه البلاد المنكودة الحظ التي تنفجر الدماء من ألف جرح أصيبت بها . أنه انقذ فرنسا فرحبت به الأمة وألقت اليه مقاليد أمورها . ان فرنسا استعادت قوتها وعظمتها بواسطة فتوحاته وادارته الحسنة . ومع ذلك يتهدده الاشرار بالقتل وتحوم حوله الجمعيات السرية لتقتله مع ان فرنسا مدينة لها بحياتها الجديدة فكيف يلام اذا حاول بعد الصبر الطويل ان يرهب خصومه الاشرار بعمل خطير وطعنة

قاضية . أنه مصر على عزمه هذا . قد استيقظ الأسد من سكينته ودعته بدسائس جديدة وسيفني هذه المرة جميع خصومه الذين يدسون الدسائس له . مولاي انني لا أوجه اليك شيئاً من التهم . لا اقول انك مخطىء في سعيك وراء استعادة عرشك وميراث آبائك . ان الله خير حكم بينك و بين اخصامك . ولكنهم يا مولاى يملكون القوة و يجب ان نستسلم لقوتهم . فياسيدى العزيز التاعس . أتوسل اليك ان تنجو بنفسك من الخطر الذى يتهددك به القنصل الأول . ومن الذين ارسلوا في آثارك للقبض عليك . فاذا هم عثروا عليك كان الهلاك نصيبك لا محالة . وليس في العالم من يستطيع انقاذك . لذلك ارجوك ان تهرب ما دامت لديك فرصة للهرب

فصاح الشاب بحدة واستياء :

— الهرب . الهرب . لقد كانت حياتي جميعها مؤلفة من الفرار والهرب . كأنما قضي عليَّ ان ابقى جائلاً متنقلا هارباً مختبئاً فلا أجد راحة في مكان ولا عناية من أى انسان لا وطن لي ولا أهل ولا اسم متجولا كالحيوان البرى المفترس لا يقر لي قرار دائب الفرار لان كلاب الصيد تعدو في أثرى . فليكن ذلك اذاً . لقد مللت مقاومة القدر ومعارضة القضاء . انني استسلم الى ما لا سبيل الى مقاومته . قد يأمر القنصل الأول بشنقي فلا اخاف الموت لانني أجد فيه الراحة التي تنكرها عليَّ الحياة وتحرمني منها . انني لا أهرب وسابقى . واقتدي بوالدي فاعرف كيف استقبل الموت باسما

فقالت جوزفين : — لا تقل هذا ياسيدى اشفق عليّ وارحم نفسك . فانك لا تزال في عنفوان شبابك ولك في الحياة مستقبل ان شاء الله . وباب أمل واسع . يجب ان تعيش لا لتنتقم لوآلديك الكريمين بل لتخفف من لوعة فقدهما . فيا ابن الملوك وسليل الاقيال ان الله منحك الحياة عن يد والديك فلا يحق لك ان ترمي بها في المهالك بل دافع عنها لان بركة والديك تشملك وعليك ان تنقذ نفسك من القتل

وقال فوشه :

— يجب ان تعيش . لان موتك يوجب ابتهاج الذين كانوا اعداء الملكة ماري انتوانيت . فيرثون ميراثك ويهزأون بضعفك . هل تسمح للكونت دى دليل ان يدعو نفسه لويس الثامن عشر وهو الذى أجرى الدموع بحاراً من عيني ماري انتوانيت ؟

فغضب الشاب لهذه التذكارات وصاح بحدة :

— لا . لا . انني لا ابيح للكونت دى ليل التمتع بهذا الابتهاج . انه لن يلقي رأسه على وسادة مطمئناً . انه سيكون ملك الغد . ان شخصي سيقلق احلامه وامكان رجوعي ومطالبتي بحقي سيرعبه ويلازمه ملازمة ظله . أصبت يا سيدتي : يجب أن أعيش . ان روح ماري انتوانيت ترف حولي وتطالبني بالبقاء حياً وأن أنتقم لها من خصمها اللدود . فما رأيك يا فوشه ؟ والى أين أذهب ؟ أين يختبىء المجرم البائس الذي لا ذنب له الا أنه حي وانه ابن أبيه ؟ أين الملجأ الأمين الذي يختبىء فيه هذا الطريد من

كلاب القانصين ؟

فقالت جوزفين :

— مولاي . يجب أن تذهب الى البلدان الأجنبية فان ذراع القنصل الأول قوية وبصره حاد يخترق أوربا باسرها فيهتدي اليك في كل بقعة منها

وقال فوشه :

— يجب عليك في الوقت الحاضر ان تقيم وراء البحار وقد أعددت لك الوسائل لهذه الغاية . توجد بواخر تسافر من مرسيليا يومياً وعلى واحدة منها يجب ان تذهب الى اميركا . فهي أرض الحرية والاقدام والعمل . وتجد فيها ما يتطلبه حبك للعمل

فقال لويس بابتسامة محزنة :

— صدقت . سأذهب الى اميركا . وأجد ملجأ بين متوحشيها لعلهم يعهدون اليّ رئاستهم ويزينون رأسي بتاج من الريش بدلا من تاج الذهب . ففي بلاد الفطرة وغاباتها بين ابناء الطبيعة يجد الشريد الطريد مقاماً ووطناً

وتحول الى جوزفين فقال :

— اشكر لك أيتها السيدة لطفك وعنايتك ويكون برهان أمتناني استسلامي لارادتك . أنك أحببت ماري انتوانيت فليباركك الله ويبارك جميع الذين يحبونك

وبسط كلتا يديه الى جوزفين فلما أوشكت ان ترفعهما الى شفتيها لتقبيلهما منعها عن ذلك وحنى رأسه وقال :

— أيتها السيدة . باركي جبيني بقبلة من شفتيك اللتين قبلتا يد والدتي

فقبلته جوزفين ودموعها تتساقط على شعره الجميل وقالت :

— مولاى . اذهب وليباركك الله ويصونك ويحميك . واذا كنت يوماً ما في حاجة الى المساعدة بلغني ذلك تجد انني لا امتنع عن خدمتك في كل شيء

* * *

بعد مضي ساعة كانت زوجة القنصل الاول تسير في عربتها الى (سان كلو) . ولما وصلت الى زاوية شارع (سان اونوره) انضمت اليها مركبة اخرى ورد الشاب الذي كان فيها تحية زوجة القنصل

حتى اذا وصلت عربتها الى باب المدينة المقفل وقفت قليلا . إلا ان جوزفين اشارت الى الحارس ان يدنو من عربتها وانفق انه كان يعرفها ففتح الباب لعربتها فقالت بابتسامتها الفتانة :

— ليس ضرورياً فيما اظن ان آتي من القنصل الاول بجواز لمروري ومرور حاشيتي . انت لا تظن انني وكاتم اسراري الراكب في العربة الأخرى من طبقة الاشرار الذين يريدون اغتيال زوجي فانحنى الرجل كثيراً وامر بفتح الباب

كذلك انقذ ابن الملكة مارى انتوانيت . وهجر باريس للمرة الثانية ملتمساً الحياة في بلاد الغربة

الفصل الثالث والثلاثون

خاتمة الطواف

كان يوم ١٦ فبراير سنة ١٨٠٤ يوم خوف ورعب في باريس . بقيت ابواب المدينة مقفلة كل ذلك النهار وطاف الشوارع حرس عسكري وعلقت على جدران الأزقة المنشورات الرسمية التي اذاعها مورات محافظ باريس واعلن فيها للاهالي ان في مدينتهم ٥٠ رجلا جاءوها لقتل القنصل الاول

وفي اثناء ذلك اعترف الجراح (كيربرول) باشتراكه في الدسيسة وصرح باسماء الزعماء ومن والاهم على الفتنة . فلم تفتح ابواب المدينة الا بعد ان فرغت الحكومة من القبض على الخمسين جميعهم

ثم بدأوا بمحاكمة هؤلاء الذين اوفدهم آل بوربون لقتل بونابرت . وفي جملتهم الجنرال (بيشيجرو) وجورج والجنرال (مورو) وهو اعظمهم شأناً واعلاهم مقاماً

اما المحاكمة فقد سترت اخبارها بنقاب من الكتمان والخفاء فشاع ان الجنرال (بيشيجرو) انتحر في سجنه وقال بعضهم همساً بل انهم قتلوه سراً في السجن

ثم جاء يوم كان اهالي باريس كأن على رؤوسهم الطير وقد ذاعت في المدينة اشاعة ملأت القلوب رعباً

تلك الاشاعة مآلها ان الجنود الفرنسوية قبضت على دوق دانجين حفيد البرنس دي كوندى في مدينة (بادن) من وراء الحدود وجاءوا به الى (فينسان) وهنالك اتهم في الليلة نفسها انه شريك في دسيسة لقتل القنصل الأول واتلاف الجمهورية . وأن المجلس العسكري حكم في الحال بادانته واعدامه فاعدموه بالرصاص صباحا في قلعة (فينسان)

وكانت الاشاعة صحيحة . انجز بونابرت وعده ووعيده . بذل رجلا ملكياً فدى للجمهورية . أراد من ذلك أن يملأ قلوب الدساسين رعباً بطعنة نجلاء ليعدلوا عن مساعيهم

وكانت الواسطة التي استعملها لأدراك غايته شديدة قاسية ولكنه أدرك الغرض الذي توخاه . ومن ذلك الحين انقطعت الدسائس وعدلوا عن محاولة قتله . وفي ١٨ مايو من السنة نفسها نادى بنفسه امبراطوراً على فرنسا

وبعد المجاهرة بامبراطوريته بايام قليلة بدىء بمحاكمة المتهمين محاكمة علنية وحضرها فوشه بصفته وزير البوليس وكان سلفه رينيه رئيس المحكمة . فحكم على ١٧ منهم بالاعدام وعلى الآخرين بالسجن سنوات كثيرة وبين هؤلاء الجنرال مورو . على أن الرأي العام جاهر بالميل الى هـذا القائد الشجاع مجاهرة صريحة فرأت الحكومة أن من الحكمة مراعاة ميول الأمة ولذلك أفرج عنه فسافر الى الحدود الاسبانية ومنها الى اميركا الشمالية

وفي ٢٥ يونيه اعدموا ١٢ من المحكوم عليهم وفي مقدمتهم جورج واستبدل حكم الاعدام على خمسة آخرين بالنفي المؤبد

وراقبت جوزفين هذه الحوادث بقلق وحزن لان نفوذها على الامبراطور بدأ يزول ولم تنفع الآن توسلاتها ودموعها فلم تتمكن من انقاذ الدوق دانجين وقالت للمسيو بورين رئيس سكرتارية الامبراطور ودموعها جارية :

— لقد اعيتني الحيلة فجربت كل وسيلة وأردت بأية واسطة ان احوله عن عزمه هذا ولم يكن قد اطلعني على ما ينويه ولكنك تعلم كيف وقفت على مقاصده . ولما سألته اعترف بما يريده ولكنه لم يصغ لتوسلاتي . فتعلقت به وتوسلت جاثية عند قدميه فقال لي: « لا تتعرضي لما لا يعنيك » ودفعني عنه بعنف قائلا : « ليست هذه المسائل خاصة بالنساء دعيني وشأني » فاضطررت الى السكوت ولم اتمكن من دفع القضاء . ولكن بعد أن انقضى الأمر تأثر بونابرت كثيراً وبقي بضعة ايام صامتاً حزيناً مفكراً ولم يعد يوبخني متى رآني ابكي [1]

وانقضت الأيام السعيده وتلتها ايام البؤس والشقاء لجوزفين فهجرها نابوليون وطلقها طلاقه المشهور في التاريخ فاقامت ٤ سنوات مهجورة مطلقة تندب حظها . فلما أفل نجم نابوليون وفقد عرشه وتاجه واكره على هجر فرنسا كانت النكبة شديدة على جوزفين فماتت

كذلك تلاشت الامبراطورية واستدعي الكونت دي ليل الى فرنسا . دعاه ملوك أوربا وليس الأمة الفرنسوية . فاستعاد دولة البوربون وتولى عرش فرنسا باسم الملك لويس الثامن عشر

---

(١) مذكرات القنصلية والامبراطورية . تأليف بورين

فاين كان لويس السابع عشر ابن ماري انتوانيت كل هذا الزمان ؟

انجز وعده لجوزفين كما بينا في الفصل السابق وذهب الى الغابات القديمة والشعوب الفطرية في أقصى اميركا فجعلوه ملكاً عليهم والبسوه تاجاً من الريش (١) ولبث بينهم سنوات مكرماً مالكا محبوبا ثم جذبه الشوق الى وطنه فذهب الى البرازيل في مأمورية لمصلحة شعبه واغتنم فرصة سفره هذه فعقد اتفاقاً مع دون جوان البرازيلي وقرر أن لا يعود الى القبائل المذكورة. وكان قد حفظ أوراقه الثمينة التي تثبت شخصيته فلما اطلع عليها دون جوان رحب به وأكرمه كثيراً. ومنه اطلع على ما جرى في فرنسا اثناء غيابه وعند اول فرصة عاد الى أوربا ووصل الى باريس في أواسط سنة ١٨١٦

فاستقبله البرنس دى كوندى الذى أصبح الان دوق دى بوربون وعطف عليه وأكرم وفادته ولكنه جاهر بأسفه العظيم لانه جاء متأخراً فلا أمل في عرض قضيته. لان الكونت دى بروفانس كان الان ملك فرنسا باسم لويس الثامن عشر فهو لا يتنازل عن العرش لابن مارى انتوانيت

بل كان أسهل من ذلك ان يعامل لويس معاملة افاك دعي أو مختل الشعور. وكان لا يزال يدعي بارون ريتشموند وعبثاً ارسل التحارير الى عمه الملك وشقيقته دوقة انجوليم يلتمس منهما أن يسمحا له بمقابلتهما فلم يحصل على رد او أقل التفات لان اجابة

---

(٢) مذكرات دوق نورماندي صحيفة ٨٩ ـ ١٦٢

طلبه تستوجب عزل لويس الثامن عشر وحرمان دوق دي باري ابن الدوقة من ولاية العهد . اعتقدوا ان لويس السابع عشر قد مات فلا سبيل الى احيائه . وادرك هذه الحقائق المحزنة فاستولى عليه حزن شديد ولكنه صبر على ما أصابه وأبى ان يموت بل اراد ان يعيش ليلقي الرعب دائماً في قلوب أقاربه القساة

ولكنه اضطر ان يعيش معيشة رحالة مضطرب كثير الحذر من اعتداء اعدائه فالح عليه البرنس دي كوندى ان يصون نفسه من الاعتداء الذى تكرر على شخصه وتوسل اليه باكياً أن يزايل فرنسا فأجابه الى ما طلب وسافر فقضى نحو سنتين في أسيا وأفريقيا ثم عاد الى أوربا فلما وصل الى الموانى الايطالية قبض عليه سنه ١٨١٨ في (مانتوا) اجابة لطلب سفير النمسا والقوه في سجن مدينة (ميلان)

فقضى هـذا الامير التاعس سبع سنوات في سجن نمساوي دون ان ينظر في قضيته او يعرف سبب سجنه . قضى سبع سنوات في ظلمة وانفراد وشقاء . الا ان ابن ماري انتوانيت كان قد الف الشقاء والاضطهاد صغيراً إذ كان في عهدة سجانه سيمون فصبر على مصابه ولقي في سجنه هذا عطفاً وعناية من السجانين الذين رثوا لحاله ورقوا لبلواه . كانوا يحسنون معاملة « ملك فرنسا »

وحدث ذات يوم وهو في (زنزانة) سجنه انه سمع من الزنزانة المجاورة رجلا يغني بصوت رخيم لطيف دوراً شعرياً كان لويس نفسه قد نظمه وكتبه على جدار الزنزانة المجاورة لما كان مسجونا

فيها . ذلك الصوت صوت (سلفيو بيليكو) . وقد وصف مؤلف « لي مي بريجيوني » تعارفهما قال :

« نقلوا فراشي الى الزنزانة الجديدة التي عينوها لي وحالما انصرف المفتش وبقيت وحدي صرفت همي الى فحص الجدران فرأيت كلمات مكتوبة بقلم رصاص او طباشير او آلة حادة . رسمها الذين تقدموني في هذا المكان . وعثرت ايضاً على بيتين من الشعر الفرنسوي الجميـل واتأسف انني لم انقلهما . على انني اخذت انشدهما على لحن موسيقي كنت قد وضعته بعنوان « المجدلية التاعسة » واذا بصوت رجل في الزنزانة المجاورة يغني دوراً آخر فلما فرع من غنائه ناديت « برافو » فاجابني بتحية لطيفة وقال :

— هل انت فرنسوى

— بل انا تلياني واسمي « سيلفيو بيليكو »

— اذاً انت مؤلف « فرانسيسكا داريميني »

— نعم انا هو

ثم عقب ذلك تبادل التحية والمجاملات واظهر اسفه لأنني مسجون وسألني في أى مكان من ايطاليا كانت ولادتي فلما اخبرته انني ولدت في (سالوزو) من مقاطعة (بيد مونت) اثنى على قومي وخص بالمديح (بودوني) وهو كتبي شهير وصاحب المطبعة الوطنية في (بارما) وكان مديحه وجيزاً دل على عقل راجح قلت له :

— والآن اسمح لي ان اسألك من انت

— لقد كنت تنشد شعراً لي

— وهل هذا الشعر المكتوب على الجدار من قلمك

— نعم

— اذاً انت . . .

— دوق دي نورماندي

ثم سمعت وقع قدمي السجان فلزمت السكوت و بعد قليل استأنفت الحديث فلما سألته اذا كان هو لويس السابع عشر اجاب بالايجاب وأخذ يطعن بحدة على لويس الثامن عشر عمه الذي اختلس حقوقه

فتوسلت اليه ان يشرح لي تاريخه مختصراً ففعل وذكر التفاصيل المتعلقة بحياة لويس السابع عشر والتي كنت قد وقفت على قسم منها وذكر كيف سجنوه عند سيمون الاسكاف وكيف اكرهه هذا ان يضع توقيعه على شهادة مهينة لشرف والدته وغير ذلك . ثم شرح لي كيفية فراره ونجاته وسفره الى اميركا ورجوعه للمطالبة بعرش آبائه وكيف قبضوا عليه في (مانتوا)

ووصف حوادث حياته بصراحة وحسن بيان وكانت جميع حوادث الثورة الفرنسوية حاضرة في ذهنه وتكلم بفصاحة طبيعية تتخللها نكات في محلها وكان في تعبيراته بعض الاحيان صفة عسكرية ولكنه كان اديب اللهجة مما دل على انه عاش مع طبقة راقية من الناس . فقلت له :

— أتسمح لي ان اكون صديقك فلا نتخاطب بالالقاب ؟

— ذلك ما اريده . ان البؤس التي عليّ دروسه فتعلمت ان

لا احفل بالألقاب العالمية . وصدقني انني افتخر برجولتي لا بأنني ملك

وعلى اثر ذلك كنا نتحادث صباح كل يوم ومسائه . وعرفت فيه نفساً شريفة جميلة تميل الى كل حسن . عرف كيف يكتسب القلوب حتى ان حرس السجن كانوا يعطفون عليه . وقال لي احد السجانين عند قدومه من زنزانة جاري :

— آمالي عظيمة انه يجعلني البواب الأول متى صار ملكا . فقد تجاسرت وطلبت هذه الوظيفة منه

وقد تمكنت من مشاهدته بفضل عطف السجان وميله اليه . ذلك انهم لما اخرجوني للمحاكمة مررت بزنزانته ففتحوا بابها لأتمكن من مشاهدة صديقي العظيم . كان ربع القوام بين ٤٠ و ٤٥ من العمر وله سحنة البوربون (١)

* * *

بعد ان قضى لويس السابع عشر سبع سنوات في سجنه أطلق سراحه على اثر وفاة لويس الثامن عشر ولكن خلفه ملك آخر فان الكونت دارتواز تسنم العرش باسم شارل العاشر

فانتقل البارون ريتشموند باحزانه وفشله الى سويسرا ولكن لما تنازل شارل العاشر عن الملك سنة ١٨٣٠ عاد ابن ماري انتوانيت من منفاه وعزلته وأصدر منشوراً للامة الفرنسية مطالباً بحقوقه. فلم يحفل أحد بطلبه الذي جاء اثناء صليل السيوف ودوي المدافع

---

(١) لي مي بريجيوني « تأليف سيلفيو بيليكو » صحيفة ٥١ وما بعدها

وصولة الثورة . فلم يكن لديه جند ولا سلاح بينما توفرت لدى دوق دورليان ـ لويس فيليب ـ جميع اسباب النجاح والفوز وتمكن بقوة انصاره ووفرة امواله من تولي العرش باسم لويس فيليب ـ في ١٩ اغسطس سنة ١٨٣٠

ولم يبق الآن لبارون ريتشموند سليل الملوك إلا صديق فرد يحسن استقباله نريد به دوق دي بور بون كوندي الذي انقذه بماله ونفوذه من السجان سيمون واعتنى به بعد فراره . وكان الدوق الآن شيخاً في الثمانين من عمره

فحدث بعد تولي لويس فيليب عرش فرنسا بأسابيع ان الدوق بور بون استقبل في قصره في سان ليو رجلا لم يعرفه احد ولكنه قال انه البارون دى ريتشموند

خرج الدوق الى الفسحة لاستقبال زائره واستقبله بكل تكريم واحترام . وعاد به الى غرفته الخاصة . وهناك جرى للرجلين حديث طويل . وكان كاتم اسرار الدوق جالساً في المكتبة المجاورة فسمع سيده الدوق يقول بصوت مرتجف :

— مولاي . أتوسل اليك ان تغفر لي . فقد كانت الأحوال والظروف أقوى من ارادتي . مولاى لا تحكم عليّ . واغفر لي

ثم ان كاتم الاسرار سمع الجواب بصوت الغاضب :

— لا . انني لا أغفر لك . لانك أسأت التصرف مع الابن كما أسأت قبلا مع الوالدة . انك خنت اليمين التي اقسمتها لي يوماً ما . فانا أمضي عنك . ولعلّ الله يرثي لك ويعفو عنك . وحذار ان

يعاقبك على خيانتك لي . لقد أقسمت لي أن لا تعترف بملك سواي ومع ذلك فانك أقسمت يمين الطاعة للملك الثالث . فأودعك . والله يقيك . وربما اجتمعنا بعد الآن في عالم افضل وهنالك تعطي حساباً امام القاضي الاعظم الذي لا يخدعه احد . كن سعيداً ورحم الله الموتى [1]

ثم سمع كاتم الاسرار الباب يقفل بعنف وساد السكوت

وبعد مضي ساعة دخل مقصورة الدوق اذ طال سكوته واذا به جالس على كرسيه اصفر الوجه ينظر باضطراب الى الباب الذى انصرف منه الضيف

وظل الدوق على تلك الحال بقية النهار وفي الليلة التالية سمعه خادمه الخاص يصلي ويبكي . وفي صبـاح اليوم التالي أي ٢٧ أوغسطس سنة ١٨٣٠ دخل الخـادم مقصورة مولاه فوجده يابساً وقد مات . وذلك ان الدوق شنق نفسه في نافذة مقصورته

* * *

كذلك مات آخر من عرف لويس السابع عشر وماتت أيضاً شقيقته دوقة دانجوليم . ولكنها أرسلت تحيتها بعد وفاتها . ذلك أنها كانت قد أمرت ان تدفع كمية كبيرة من المال كل سـنة الى بارون ريتشموند وذاع انها أرادت قبل وفاتها أن تستدعيه الى فراش مرضها وتعترف به الا ان كاهن اعترافها نصح لها ان لا تفعل لان اعترافها به يوجد شقاقاً جديداً بين البوربون ويسهل لهنرى

(١) كلمات بارون ريتشموند . « مذكرات دوق دي نورمندي » صحيفة ٢٤٣

الخامس الادعاء بما يطالب به لويس السابع عشر

على أن دوق نورماندى أو بارون ريتشموند لم يفتأ مطالباً بحقوقه حتى رأى الملك لويس فيليب من اصالة الرأى لمصلحته الذاتية ان يقبض عليه ويحاكمه . فطالت التحقيقات الابتدائية مدة ١٥ شهراً ثم حاكموه بتهمة التعرض لسلامة الدولة

ونشرت تفاصيل المحاكمة في « غازيت دى تريبونو » في ٣ و٤ و٥ نوفمبر سنة ١٨٣٤ فاقبل الناس أفواجاً والمستغرب ان جمهوراً كبيراً من الناس حضروا ليشهدوا ان الدوق نورماندي والبارون ريتشموند هما واحد وأنه ابن لويس السادس عشر . وحضر المتهم فكان في موقف الاتهام جريئاً عالي الرأس

ولما اتهمه النائب العمومي باسم الحكومة انه اختلس اسماً ليس له أجابه بسكينة وقال :

— ايها السادة اذا لم أكن لويس السابع عشر فهل لكم ان تفيدوني من أنا ؟

وعجز الجميع من الرد على هذا السؤال . الا ان العدد الغفير من الحاضرين جاءوا ليشهدوا انه ملكهم وأنه هو الغلام الذي أنقذ من سجن (التامبل)

بل ان رئيس المحكمة نفسه كان على رأيهم فلما ختم خطابه الموجه الى المحكمة قال :

ـ أيها السادة . من هو المتهم الواقف امامكم الآن ؟ ما اسمه وما نسبه ؟ وما هي عائلته ؟ ما هي سوابقه وتاريخه ؟ أهو آلة في يد أعداء فرنسا أم هو بالاكثر تاعس منكود الحظ نجا بأعجوبة من

مخاوف الثورة الدموية فهو الان لا اسم له ولا أين يضع رأسه

على ان جماعة المحكمين لم يطلب منهم الفصل في هذا الأمر. بل طلب منهم فقط ان يردوا على السؤال الذي ألقي عليهم وهو هل المتهم مدين بأمر دسيسة على العرش وكان جوابهم بالايجاب

فحكم على المتهم بالحبس ١٢ سنة

ونقل دوق نورماندي أو الملك لويس شارل الى سجن (سان بيلاجي) ولكن في السنة الثانية بمساعدة بعض ذوى النفوذ من أصدقائه أطلق سراحه فذهب الى سويسرا وأقام زمناً

ثم جاءت سنة ١٨٤٨ سنة الثورات التي أكرهت الملك لويس فيليب على الفرار الى انجلترا فلم يعد الى عرش فرنسا

واذ ذاك برز لويس شارل مرة اخرى من وحدته ومنفاه. جاء هذه المرة ومعه جمهور من الأعوان. التف حوله فريق من أنصاره الاغنياء واستمالوا اليهم جريدة اسمها «لا انفليكسيبل» فدافعت عن حقوق دوق نورماندى وجاهرت بلاد (لا فاندى) بالانتماء اليه ونادوا به ملكا واستدعوه اليهم. فلما عزم على السفر الى انصاره الامناء التى الله يده عليه فاقعده. اذ أصيب بالفالج. فلما شفي تلاشت قواه العقلية نوعاً ما. وتحول المطالب بالعرش من رجل قوي ناري الى راهب وديع ورع يصوم و يصلي فذهب الى رومية لمقابلة البابا بيوس التاسع الذي حله من خطاياه

قابل البابا دوق نورماندي في (جاتيا) يوم ٢٠ فبراير سنة ١٨٤٩ وجرى لهما حديث سري طويل فلما انصرف لويس شارل من حضرة البابا كان رجلا هادئا تقياً باسما. لم ينكر أصله الشريف

ولكنه لم يبق له مطمع في العودة الى عرش آبائه وما لبث ان انزوى عن العالم فاقتصر على المعيشة مع بعض انصاره الشرفاء وكانوا يخاطبونه بلفظة (مولاي) وفي ذلك الحين كتب الى احد أصدقائه ما يأتي :

« تسألني ماذا أريد . وما هي خاتمة مساعيّ وجهادى الذى واصلته نحو ٥٠ سنة حتى الآن . فاليك الجواب . ارجو انك لا تظن انني لا أزال عازماً على تسنم عرش فرنسا . ولو انني فعلت لكان عملي ضاراً لي ولا شك يكون اكثر ضررا لفرنسا . فيصدق القائل انني واياها نستأهل ما يحل بنا من النكد . كما انني اقل ميلا الان الى ما احصله من الثروة والجاه بواسطة الاعتراف بي . انت تعلم ان القليل التافه يكفي لمعاشي وهـذا القليل متوفر لي . فماذا اطلب فوق هذا ؟ هل أريد ان انتقم لنفسي ؟ لا يا صديقي . فلقد وصلت الى سن بردت فيه الدماء التي تجرى في عروقي فاجد الان لذة في العفو والغفران . اذاً ما الذي اطلبه ؟ ولماذا اسعى ؟ السبب في ذلك ايها الصديق هو انني ارغب قبل موتي ان اقنع جميع الذين صدقوني انني لست الافاق الدعي السياسي ولكنني « يتيم التامبل » الملكي المدين لاولئك الاصدقاء بصداقتهم ولهم مني الشكر »

* * *

وقد تحققت امانيه . فان الانصار الذين احاطوا به صدقوه . ولما مات بكوه وندبوه باعتبار انه مولاهم الملك ونقلوه الى ضريحه باُبهة وكرامة في الليـل . مشى وراء نعشه نحو ٥٠ من انصاره

يتقدمهم كاهن واحد ودفنوه في مدفن الكنيسة في ڤيلفرانش Villefranche ونقشوا على ضريحه ما يأتي :

هنا يرتاح

لويس شارل ملك فرنسا

ولد في فرسايل في ٢٧ مارس سنة ١٧٨٥

ومات في قصر « فورينو » في ١٠ اوغسطس سنة ١٨٥٨



To: www.al-mostafa.com